السنة السادسة (رمضان سنة ١٣٥٨هـ – أكتوبر سنة ١٩٣٩م) العدد الثانى

صحيفة دار العلوم

(ع ١٩٣٤ م)

تصدرها جماعة دار العلوم

كل ثلاثة أشهر

رئيس التحرير	المدير
محمد على مصطفى	محمد نجيب حتياتة

المراسلات الخاصة بالتحرير ترسل باسم رئيس التحرير

بنادى دار العلوم ٧٧ شارع الملكة نازلى

الاشتراكات والحوالات المالية

ترسل باسم أمين الصندوق

السباعى بيومى

المدرس بدار العلوم

مكتب بريد الدواوين

الاشتراك السنوى

فى القطر المصرى	٢٠ قرشاً
خارج القطر	٦ شلنات انجليزية
ثمن العدد	٥ قروش

مطبعة العلوم بشارع الخليج بجنينة لاظ

إِنَّ بَاحِثًا مُدَقِّقًا لَوْ أَرَادَ أَنْ يَعْرِفَ أَيْنَ تَمُوتُ
اللُّغَةُ الْعَرَبِيَّةُ وَأَيْنَ تَحْيَا، لَوَجَدَهَا تَمُوتُ فِي كُلِّ مَكَانٍ
وَتَحْيَا فِي دَارِ الْعُلُومِ"

الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده

احتفال جماعة دار العلوم

بتخليد ذكرى المرحوم

أبو الفتح الفقى

فى الساعة السادسة والنصف من مساء الثلاثاء ١١ يوليه سنة ١٩٣٩ احتفلت جماعة دار العلوم فى نادى دار العلوم بتخليد ذكرى المغفور له «**أبو الفتح الفقى**»

قد انتظم النادى كثيرين من صفوة القوم ورجال التربية والتعليم بمصر وكان فى مقدمة الحاضرين حضرة الشيخ الجليل صاحب السعادة أمين باشا سامى وأصحاب العزة الأساتذة محمد العشماوى بك ومحمد عوض إبراهيم بك ومحمود الدرويش بك وأمين سامى حسونه بك ومحمد رفعت بك وعبد الرازق القاضى بك ومحمود البطراوى بك ومحمد أحمد جاد المولى بك وغيرهم من أعضاء مجلس الإدارة وهيئة التدريس بدار العلوم وأساتذة اللغة العربية فى المعاهد المختلفة .

وكان فى استقبالهم حضرة الأستاذ نجيب حتاته رئيس جماعة دار العلوم تعاونه اللجنة التنفيذية التى ألفت للإشراف وتنظيم الاحتفال .

ولما حضر صاحب المعالى الدكتور محمد حسين هيكل باشا وزير المعارف قابله الأعضاء واستقبلوه أحسن استقبال ، ثم مدت الموائد تحمل مالذ وطاب وجلس إليها المدعوون فأكلوا وشربوا ثم وقف الأستاذ نجيب حتاته وألقى الكلمة الآتية :

معالى الوزير

أستاذنا أمين باشا سامى

حضرات الإخوان

أحييكم أجمل تحية ، وأرحب بكم أتم ترحيب ، وأشكر لكم تلبيتكم دعوتنا، وتفضلكم بتشريف حفلة ذكرى المغفور له أبى الفتح الفقى رئيس جماعتنا السابق.

سادتى :

تخرج الفقيد فى دار العلوم سنة ١٩٠٧ ثم اختير عضوا للبعثة فى انجلترة ، وعاد موفقا فاشتغل بالترجمة والتحرير فى الإدارة التى أنشأتها وزارة المعارف فى ذلك الوقت لوضع مصطلحات للعلوم والفنون كى تكون أساساً لتدريس المواد المختلفة باللغة العربية بعد أن كانت تدرس باللغات الأجنبية .

ثم اختير للتفتيش فى مدارس الوزارة وجاءت الثورة الوطنية فكان من البارزين فى ميادينها وقد اختير نقيبا للمعلمين فقام بأعباء هذا العمل على أكمل وجه ، ودافع عن حقوق المعلمين دفاعا مجيدا ، ثم رشحته كفايته ليكون عضوا فى مجلس النواب سنة ١٩٢٤ وفى سنة ١٩٢٥ عاد إلى الوزارة مفتشا ، ثم معاونا لمراقب التعليم الأولى ، وأخذ يتقلب فى الوظائف حتى انتهى به المطاف إلى دار العلوم ، إذ عين وكيلا لها فأخذ يعمل لإسعاد أبنائها والمحافظة على كيانها حتى عاجلته المنية أشد ماتكون الحاجة إليه .

ولقد كان فى كل وظيفة تولاها مثال الرجل العامل والقائد المحنك ، يريح مرءوسيه ، ويأسرهم بطيب شمائله ، ورقة قلبه ، ودقة عمله .

ولم ينس الفقيد واجبه الاجتماعى بجانب عمله الحكومى بل كان قائداً للمعلمين سنين طويلة ، ثم قائداً لطائفته يسهر لراحتها ، ويعمل على رفع مكانتها، ويتعرض للأذى بسببها حتى كون لها جماعة محترمة ، وأسس لها ناديها ، الذى يضم أبناء دار العلوم ويوجه جهودهم لخير التعليم .

فكان لزاما علينا وعلى الإخوان أن نحيي ذكراه ونقدر فضله ؛ وفاء بحقه واعترافا بجليل خدماته ، فجمعت مبالغ من المال اشترينا بها ٥٦ سهما من سهوم مصرف مصر جعلنا ربحها جائزة سنوية تمنح للفائزين الأول والثانى من خريجى الدار فى امتحان اللغة العربية ، وقد استحق الجائزة الأولى الأستاذ أحمد عبدالعظيم ، والجائزة الثانية الأستاذ عبدالعال فج النور .

ثم قدم الجائزتين إلى حضرة صاحب المعالى الوزير فقدمهما إلى الفائزين، وبعد ذلك ألقى معاليه الخطبة الآتية :

إخوانى :

لايسعنى إلا أن أشكر لحضرة رئيس جماعة دار العلوم على ماوجهه إلى من ثناء . وحق على قبل هذا أن أقدر عملكم الجليل لتخليد ذكرى فقيدكم بالاكتتاب لهذه الجوائز التى توزع على الناجحين الأولين اليوم . وستوزع على الناجحين الأولين فى مثل هذا الموعد من كل عام ، وإنى إذ أقدر مافتم به تخليداً لذكرى رجل كان له فى العمل العظيم الذى تضطلعون به ، وأعنى تعليم اللغة العربية — أثر كبير لا يفوتنى القول بأن هذا قليل بالقياس إلى مايجب علينا للذين يغادرون الحياة بعد أن يتركوا فيها أثراً خالداً .

إخوانى :

يخطىء جداً من يظن أن العاملين الصالحين المصلحين يزولون من الحياة بموتهم ، فهذا الجسد الذى يفنى ليس شيئا فى تقويم الرجال ، وإنما قيمتهم فيما يقومون به من أعمال صالحة ، والأعمال الصالحة باقية شاهدة لأصحابها فى هذه الحياة الدنيا ، شاهدة لهم عند الله فى الحياة الآخرة .

وإنه ليسعدنى أن يكون إلى جانبنا فى هذا الحفل ذلك الرجل الكبير أمين سامى باشا الذى عمل كثيرا فى هذه الحياة ، وإنى وإن لم أسعد بالتلمذة له فقد كان والدى وبعض أعمامي من تلاميذه ، وإذا كنت مدينا لهؤلاء بالفضل

كابن ، فإنى مدين لأمين باشا كحفيد .

كان أمين باشا ناظراً لدار العلوم وكان الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده من معاصريه فتحدث عن اللغة العربية فقال « تموت اللغة العربية فى كل مكان وتحيافى دارالعلوم » .

ولقد كان أمين باشا يقدر المهمة العظيمة الملقاة على عاتق معلم اللغة العربية ومعلم اللغة فى كل أمة .

ولهذا كان يتقدم للدار ثلثمائة طالب فلا يختارمنهم — كما قال لى — سوى أربعة أو خمسة .

إخوانى :

لقد ظلت دار العلوم سبعين عاما تنهض بمهمتها على وجه يدعو إلى الفخار ، ولكن الزمن يتغير ، ومهمة دار العلوم تتغير ، ولهذا دعوتكم إلى التفكير معى فيما يجب أن يدخل على دار العلوم من إصلاح حتى تساير العصر .

لم يكن فى مصر منذ مائة عام أكثرمن بضعة كتاب . فلما أنشئت دارالعلوم كانت مهمتها شاقة ويكفى أن تتأملوا كتابات الجبرتى وابن إياس ومن إليهما من العلماء والمؤرخين لتروا مبلغ ما اضطلعت به الدار من عبء ، نرى غزارة فى المادة ، واستقلالا فى الرأى ، وحرية فى التفكير ، وابتكاراً فى المعانى ، ولكننا نرى مع هذا أسلوبا مهلهلا ، وتعبيرا متخاذلا.فكان غرض دار العلوم إحياء موات اللغة وبعث هذا الكنز الذى كاد يختفى تحت الركام .

استطاعت دار العلوم بجهد رجالها أن تعيد هذا الضياء الخابى إلى اللغة العربية فى قواعدها وأدبها وبلاغتها وأن تحيي مجدها القديم الذى كان يفاخر به الأمويون والعباسيون ، بل استطاعت أن تبعث فيها القوة والنشاط ، وإذا كنا — نحن كتاب اليوم — مدينين لأحد فدينا لأبناء دار العلوم .

لقد ألفت كتب فى الأدب وفى القواعد وليكن الحكم عليها مايكون ،

ولكن الذين جمعوا ورتبوا هم أبناء دارالعلوم ، وإذا كانت كل مهنة تتغير بتغير الزمن ، فمهمة رجل اللغة أخطر مهمة ، ولهذا يجب أن يظل صاحبها فى دأب مستمر واطلاع متصل ، وأن يبعد عن ذهنه أنه بتخرجه من المعهد الذى تعلم فيه قد أتم العلم وجمع المعرفة ، فمن يقول بهذا — إن لم يكن قد وهبه الله سرا لانعلمه — دعى مغرور لاخير فيه ، ولا رجاء منه ، فابعثوا فى نفوس أبنائكم حب الاطلاع والرغبة فى التحصيل ، وقد خطت مصر خطوات واسعة فى سبيل نقل العلوم من اللغات الأجنبية إلى العربية ، ونحن نطالب الجامعة الآن بأن تدرس العلوم جميعا باللغة العربية ، لأن اللغة مقوم أساسى من مقومات القومية ، فإذا كانت أجنبية كان الشعور بالقومية ضعيفا ، وكانت نفسية الشعب ضعيفة .

وعليكم بعد الجهد الماضى ، أن تخطو خطوة جديدة ، تلك هى قومية اللغة وقومية العلم ، وتيسير اللغة لتتسع لهذا العلم ، فنحن نعلم أن العربية غنية ، وأنها كفيلة بأن تسد مطالب العلوم كلها . وإنى إذ أدعو إلى هذا لاأدعو إليه كوزير للمعارف — ولقد مكنتنى هذه الصفة من أن ألمس جهدكم بوضوح — ولكنى أدعو إليه ككاتب عربى .

ثم عليكم أن تقربوا بين لغة الكتابة ولغة التخاطب ، وليس تحقيق هذا بالأمر العسير ، فقد كانت فرنسا منذ خمسين عاما مختلفة اللهجات باختلاف المقاطعات ، ولكنها استطاعت بعد انتشار التأليف وذيوع الصحف ، أن توحد بين هذه اللغات جميعها ، وبينها وبين لغة التخاطب .

وقد انتشر التأليف فى مصر وذاعت الصحف إلى حد كبير ، وعليكم أن تواصلوا هذا الجهد حتى يؤتى ثمرته المرجوة .

وإنى لواثق من أنكم جميعا تشعرون بشعورى ، وتحسون إحساسى ، ومتى اتحد الشعور كفى أن يقول إنسان كلمة الحق ليستجيب الناس نداءه .

وإنى أقرر اطمئنانى إلى أن اسم دار العلوم سيبقى دائماً علما لنهضة اللغة العربية، وسنسير بها خطوة بعد خطوة، ومرحلة إثر مرحلة، وأن رجالها سيشعرون دائما بأنهم كلما أتموا مرحلة تفتحت أمامهم أبواب مراحل جديدة، شأنهم فى ذلك شأن طالب السعادة كلما أمسك بشىء شعر بأنه ينقصه أشياء. وشعور الإنسان بالنقص آية الأمل فى الكمال.

وإن اعترافى بالدين لأبناء دار العلوم فى تعلم اللغة العربية يشعرنى بأنه واجب على أن أسير معهم، وأن أتعاون وإياهم على تحقيق مانرجوه جميعا للغة العربية.

ويشجعنا على الاضطلاع بهذا العبء شباب مليكنا المحبوب الذى يبعث الحياة قوية فتية فى هذا الوطن وفى جميع مقوماته؟

☆☆☆

هذا وقد أعد كثير من أبناء دار العلوم مجموعة طيبة من الخطب والقصائد لم يتسع وقت معالى الوزير لسماعها ومن بينها قصيدة للأستاذ عبد العزيز عتيق، وقصيدة للأستاذ عبد العظيم بدوى وقد نشرناهما فى موضع آخر.

☆☆☆

مسألة تدريس اللغة العربية
توحيد التعليم فى المعاهد

مذكرة معالى الدكتور هيكل باشا وزير المعارف السابق

أشار معالى الوزير فى مقدمة المذكرة، إلى ناحيتى المشكلة: وهما مسألة تهيئة معلم اللغة العربية، ومسألة المسابقة بين خريجى المعاهد الثلاثة: دار العلوم، وكلية الآداب فى الجامعة، وكلية اللغة العربية فى الأزهر.

ثم قال: وهذه « المسألة الثانية ثانوية الأهمية فى الواقع. وهى إنما نشأت عن الوضع الخاص بمحاولة إصلاح المعاهد الدينية، وقد ترتب على هذا الوضع أن تخرج عدد من أبناء كلية اللغة العربية فى الأزهر. وفى نفس الوقت أوشك عدد من أبناء قسم اللغة العربية بكلية الآداب بجامعة فؤاد الأول ممن تتحقق فيهم شروط خاصة من حيث الثقافة الإسلامية - على التخرج؛ لذلك فكر هؤلاء وأولئك فى مستقبلهم. وكان اعتماد خريجى كلية اللغة العربية بالأزهر على النص الذى ورد فى قانون المعاهد الدينية سنة ١٩٣٦.

« فلما نظر مجلس الوزراء فى مطالب هؤلاء الخريجين من الأزهر لم يجد خيرا من المسابقة بينهم وبين الذين تخرجوا فى دار العلوم وفى جامعة فؤاد الأول، على ما فى هذا الحل من مساس بما لوزير المعارف من حق مطلق فى اختيار المعلمين الذين يعينهم فى مدارس الوزارة، يقابل مسئوليته عن التعليم فى هذه المدارس.

أما والمسابقة مسألة ثانوية فإن وزارة المعارف تدع تفاصيل الكلام فيها إلى المعاهد الثلاثة التى يعنيها أمرها بالذات. وكل ما تلاحظه أن نتائج هذه

المسابقة يجب أن تكون متساوية بالنسبة لجميع الذين يدخلونها . ومعنى ذلك أن يكون للمتفوقين الأولين منهم حظ التعيين فى جميع وظائف اللغة العربية بمعاهد الدولة سواء أكانت معاهد دينية أم معاهد مدنية .

ومن الحيف أن يفضل قوم على قوم من المتسابقين فى هذه الناحية لغير شىء إلا لاختلاف المعاهد التى تخرجوا فيها . ويبدو هذا الحيف ظاهراً فى الوضع التالى : تفوق الخمسة الأول من دار العلوم فعينوا فى وظائف وزارة المعارف المبينة بقرار مجلس الوزراء ، وتلاهم خمسة أو أكثر من دار العلوم كذلك ، ثم جاء المتأخرون من كلية الآداب أو من كلية اللغة العربية بالأزهر . أبناء كلية اللغة العربية بالأزهر لا يصيبهم أى ضرر مهما تأخروا إذا احتفظ لهم بوظائف التدريس فى المعاهد الدينية . فأما إذا تفوق جماعة من أبناء الأزهر واشترك معهم فى التفوق جماعة من أبناء دار العلوم ، فإن الأولين يشاركون فى وظائف التعليم بوزارة المعارف ، بينما يمتنع على الآخرين الالتحاق بوظائف التعليم فى المعاهد الدينية .

لذلك يكون من الإنصاف كما قدمنا أن يتساوى المتفوقون فى الحقوق . وليزول كل لبس فى هذا الأمر ، نرجو أن يكون رأى اللجنة فيه صريحاً وأن تقترح عند الضرورة تشريعاً مؤقتاً يشبه ما يأتى :

« الحاصلون على إجازة التدريس من دار العلوم يكون لهم حق التدريس بالمعاهد الدينية .

ويكون هذا الحق للحاصلين على ليسانس قسم اللغة العربية بكلية الآداب بجامعة فؤاد الأول ، بشرط أن يكونوا حاصلين على الشهادة الثانوية من الأزهر أو من تجهيزية دار العلوم أو على دبلوم معهد التربية .

ويترتب لهؤلاء وأولئك هذا الحق ، إذا اجتازوا امتحان مسابقة يعقد

بينهم وبين خريجى كلية اللغة العربية بالأزهر » .

٭٭٭

« أما مسألة تهيئة معلم اللغة العربية فتلك هى المسألة الجوهرية. ويجب لبحثها أن نفصل أولا فى إمكان توحيد التعليم أو عدم إمكانه فى المعاهد الدينية والمعاهد المدنية فى القسمين الابتدائى والثانوى منهما . فلا ريب أن الفصل فى هذه المسألة ييسر تحديد الجهة التى تتولى تهيئة هذا المعلم ليكون قديرا على الاضطلاع بمهمته وعلى أدائها أحسن أداء .

« ويجب أن نسارع إلى القول بأننا متى فصلنا فى مسألة توحيد التعليم من حيث إمكانه وعدم إمكانه ، فقد وجب أن يترتب على الرأى الذى نصل إليه كل آثاره .

لقد لاحظ واضعو الدستور المصرى الحال التى كانت عليها المعاهد الدينية حين وضعه . فجعلوا لهذه المعاهد كيانا خاصا ونظاما خاصا باعدا بينها وبين النظام الدستورى العام للدولة . ذلك لأن هذه المعاهد كانت وحدة مستقلة لاصلة لها بوظائف الدولة وأعمالها . بل كان رجال القضاء الشرعى يتعلمون فى مدرسة القضاء الشرعى تحت سلطان وزارة المعارف . وكان معلمو اللغة العربية — كما لايزالون — يتعلمون فى دار العلوم تحت سلطان وزارة المعارف . وكان وزير المعارف هو المسئول دستوريا عن هاتين المدرستين . يضع لها النظم والبرامج، ويختار لها الأساتذة ويهيء لها الامتحانات ، كل ذلك يقوم به مستقلا لاشريك له فيه ، متمتعا بحقه وبمسئوليته الدستوريين .

أما المعاهد الدينية فكانت بعيدة عن الاشتراك فى شئون الدولة، وكان عملها دينيا بحتا كاسمها ، وكان الذين يتخرجون من أبنائها يعودون إلى التعليم فيها ، لاشأن لهم بما سوى ذلك من وظائف الدولة ولا مطمع لهم فيه ، فلم يكن

لذلك عجبا أن تخرج هذه المعاهد عن النظام الدستورى العام ، وأن يكون لها استقلال خاص .

فلما تولى الأستاذ الأكبر الشيخ المراغى مشيخة الجامع الأزهر فى سنة ١٩٢٨ ، رأى أن المعاهد على وضعها ذاك ، لا تؤدى الغرض الذى أنشئت أول أمرها لأدائه ، بل لعلها تتهم بالتأخر والرجعية ؛ لذلك وضع مذكرته الموجودة تحت نظر اللجنة ، وطالب فيها توحيد التعليم بين القسمين الابتدائى والثانوى بالمعاهد الدينية والقسمين الابتدائى والثانوى بالمدارس الأميرية ، مع فارق بسيط : ذلك أن تحل العلوم الدينية فى المعاهد محل اللغات الأجنبية فى المدارس الأميرية ، أما فيما سوى ذلك فتكون البرامج هى برامج المدارس الأميرية . وعلى أساس هذا التوحيد أقام فضيلة الأستاذ الأكبر نظام الكليات الثلاث ، وجعل للمتخرجين فيها أهليات خاصة للقضاء الشرعى ولتعليم اللغة العربية ، ورتب على ذلك إلغاء مدرستى القضاء الشرعى وتجهيزية دار العلوم تمهيدا لإلغاء دار العلوم .

النتيجة الطبيعية لهذا النظام الذى أدمج المعاهد الدينية فى الدولة وجعل لخريجيها أهليات لتولى وظائفها ، أن تندمج هذه المعاهد فى النظام الدستورى للدولة ، وأن تضم إلى وزارة المعارف ، شأنها فى ذلك شأن المعاهد فى بلاد العالم جميعا . ولعل الأستاذ الأكبر قد قدر هذه النتيجة المنطقية بدليل أنه رأى أن يكون لوزارة المعارف اشتراك جوهرى وإشراف فعلى على كلية اللغة العربية من حيث وضع برامجها ، والتفتيش عليها ، وامتحان طلابها ، والاستعانة بأساتذة وزارة المعارف على تعليم المواد التى لا يوجد لها معلمون بين رجال المعاهد الدينية . بل لقد ذهب فضيلته إلى وجوب أن يكون الامتحان النهائى لكلية اللغة العربية هو بعينه الامتحان النهائى لدار العلوم مع أن وزارة المعارف هى التى تضع هذا الامتحان النهائى وهى التى تشرف عليه وتقوم به فى كل أدواره .

لكن الاتجاهات السياسية والدستورية فى ذلك الوقت حالت دون تنفيذ

هذا الإصلاح الذى أراده الشيخ الأكبر للمعاهد الدينية للبلوغ بها إلى غايته، وقد أدت هذه الظروف إلى أن استقال فضيلة الأستاذ الشيخ المراغى من مشيخة الأزهر، ثم استقالت الوزارة التى اقترح فى عهدها ذلك النظام الذى يرمى إلى توحيد التعليم فى الدولة — وكانت وزارة حضرة صاحب المقام الرفيع محمد محمود باشا — وقد شغلت مصر بعد ذلك بانتخاب عدلى باشا فى سنة ١٩٢٩ ثم بمفاوضات النحاس باشا فى سنة ١٩٣٠ ثم بالانقلاب الدستورى الذى تلا ذلك فى سنة ١٩٣٠ أيضا والذى لم ينفذ إلا فى يونيو سنة ١٩٣١.

فى هذه الفترة المضطربة سياسيا ودستوريا صدر قانون الأزهر فى سنة ١٩٣٠ وقد أهمل هذا القانون فكرة توحيد التعليم التى رسمها فضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ المراغى ونص عليها صراحة فى مذكرته. ومع ذلك استبقى هذا القانون الصورة الظاهرة للكيان النظامى الذى أراد فضيلته أن يقيم المعاهد الدينية على شاكلته: أنشئت كليات، وأنشئت معاهد ابتدائية، وثانوية، ولكن الجوهر الذى طالب به الشيخ الأكبر لم ينفذ شىء منه. لم تغير الكتب. لم تغير برامج التعليم إلى الحد الذى يحقق فكرة توحيد التعليم مع المدارس الأميرية. لم يتغير الأساتذة بأكثر من استعارة بعض أساتذة وزارة المعارف عن طريق الندب للتدريس فى المعاهد الدينية وتعيين طائفة من مدرسى العلوم الحديثة ثم الاستغناء عن أكثر هؤلاء بعد أن عدلت مناهج التعليم مرة أخرى فى سنة ١٩٣٦ كما سنشير إليه فيما بعد.

على ذلك ألغيت مدرسة القضاء الشرعى اكتفاء بكلية الشريعة وألغيت تجهيزية دار العلوم تمهيداً لإلغاء دار العلوم نفسها. ثم بقيت المعاهد الدينية محتفظة باستقلالها بعيدة عن النظام الدستورى للدولة.

***

ولقد عاد فضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ المراغي إلى مشيخة الجامع الأزهر

فى سنة ١٩٣٤ ، وكان المفهوم أن يعود فضيلته بهذه المعاهد إلى النظام الذى أراده لها . لكن الحوادث كثيرا ما تكون أقوى من الرجال على حد تعبير الساسة وكثيرا ماتضطرهم إلى السير فى طريق غير الذى رسموه . والظاهر أن ذلك هو الذى واجه فضيلة الشيخ الأكبر والذى اضطره إلى الرجوع عن فكرته الأولى مجاراة للأحوال التى لم يكن من مجاراتها بد .

بل لقد رجعت المعاهد بعد فترة من عودة فضيلته إليها ؛ لتكون أكثر اتصالا بماضيها ! فقد ألغى قانون سنة ١٩٣٠ — على ما كان بينه وبين فكرة فضيلته الأولى من اختلاف — وصدر بديلا منه قانون سنة ١٩٣٦ الذى رد المعاهد الدينية إلى نظامها الأول وإن بقيت فى الصورة على الوضع الذى يسمونه «الوضع النظامى» ؛ إذ أنقص من تدريس العلوم الحديثة بحجة أنها تطغى على العلوم الدينية والشرعية . ولقد كان هذا التعديل فى القانون إمعانا فى الابتعاد عن فكرة توحيد التعليم العام فى بلاد الدولة ؛ إمعانا يدعو إلى التفكير فيما إذا كان هذا التوحيد مستطاعا حقا مع الأطوار التى مرت بها المعاهد الدينية فى أدوارها المختلفة.

ولو أن التوحيد كان مستطاعا وكانت مذكرة الشيخ الأكبر فى سنة ١٩٢٨ قد نفذت ، لوجب أن تضم المعاهد الدينية إلى وزارة المعارف كما قدمنا ، وعند ذلك تحل مسألة تهيئة معلم اللغة العربية حلا طبيعيا ؛ لأن وزير المعارف سيكون مسئولا عن المعاهد المدنية والمعاهد الدينية جميعا ، وسيضع فى حدود مسئوليته الدستورية النظام الذى يكفل تهيئة معلم اللغة العربية لهذه المعاهد القائمة على أساس من توحيد التعليم .

أما والتوحيد غير مستطاع ، حيث تبقى المعاهد الدينية فى وضعها الخاص من حياة الدولة ، فالطبيعى أن يكون وزير المعارف وحده هو الذى يضع النظم الكفيلة بتهيئة معلم اللغة العربية فى المدارس التابعة له والمسئول هو عنها،

وألا يكون للمعاهد الدينية أى حق فى التداخل فى شئونه ، وألا يكون لخريجيها أية أهلية خاصة للتعليم فى مدارس الوزارة .

والواقع أن وزارة المعارف تعانى فى الوقت الحاضر متاعب فى تعليم اللغة العربية شعر بها وزراء المعارف المتعاقبون جميعا ، وحاولوا وسيظلون يحاولون إلى زمن غير قريب التغلب عليها . هذا مع أن معلم اللغة العربية نشأ فى مدرسة دار العلوم تحت سلطان وزارة المعارف وإشرافها الدقيق منذ سبعين عاما .

وسبب هذه المتاعب يرجع إلى أن أبناء دار العلوم يؤخذون دائما من الأزهر ، بحجة أن معلم اللغة العربية يجب أن ينشأ فى ظلال الدين الإسلامى الذى اختصت المعاهد الدينية بتعليمه ، وقد أنشئت تجهيزية دار العلوم للتغلب على هذه المتاعب ، فحوربت حربا انتهت بإلغائها تنفيذا لقانون سنة ١٩٣٠ . ولما أرادت وزارة المعارف إنشاء قسم إعدادى لدار العلوم حورب إنشاء هذا القسم،واضطرت وزارة المعارف على أسف منها إلى العدول عنه .

والواقع أن معلم اللغة العربية يجب أن يهيأ فى ظلال القرآن على أنه الحجة الثبت فى اللغة ، والمثل الأعلى فى البلاغة ، فأما ماسوى ذلك من علوم الدين فحسب معلم اللغة العربية منها أن يأخذ بقسط كاف من العلوم التى تمكنه من فهم القواعد الدينية العامة والثقافة الإسلامية .

لكن معلم اللغة العربية بحاجة مع فهمه القرآن وبلاغته ، ومع إحاطته بقواعد اللغة نحوا وصرفا وبلاغة ، إلى تتبع اللغة فى تطورها على اختلاف العصور . بحاجة إلى معرفة الأسباب الحقيقية التى أدت إلى ازدهارها حينا وإلى جمودها أحيانا . بحاجة إلى معرفة تاريخ الأدب العربى حديثه وقديمه . بحاجة إلى مقارنة هذا الأدب بآداب اللغات الأخرى وإلى معرفة تأثر هذا الأدب بتلك الآداب وأثره فيها فى العصور المختلفة . بحاجة إلى إدراك صلة اللغة بالعلوم المختلفة جميعا . فاللغة الحية لا تكون حية إلا بمقدار وفائها بحاجات هذه العلوم

كوفائها بحاجات الدين وبحوثه ، وبمقدار وفائها بهذه الحاجات فى أحدث طور وصل إليه العلم وأحدث صورة وصل إليها التفكير الأدبى والفلسفى .

٭٭٭

لم يكن الناس يشعرون منذ سنوات ماضية بحاجة معلم العربية إلى هذا كله ؛ لأن الحياة الجامعية لم تكن قد نشأت ، أو لأنها كانت فى بدء نشأتها ، ولأن المدارس العليا كانت تدرس فيها أكثر العلوم باللغات الأجنبية ، فكان إتقان اللغة العربية معتبرا أمرا مقصودا لذاته ، يحمد من يبلغه ، ولا يلام من يقصر فيه ، فلما بدأت الحياة الجامعية تؤتى ثمرها ، ولما بدأت الدراسات باللغة العربية تستقر فى كليات الجامعة المختلفة ، ثم لما بدأ الشعور بضرورة تمصير العلم كله يقوى فى النفوس ، بدأ رجال وزارة المعارف وغير رجال وزارة المعارف يدركون أن اللغة ليست غاية لذاتها ، وأن التفوق فيها ليس كمالا يستحق صاحبه الحمد ولا يلام من لا يبلغه ، وإنما اللغة أداة لنقل العلم وألوان الفكر ووسيلة للتفاهم ، فالتقصير فى إتقانها موجب للوم ضار بالحياة الفكرية فى البلاد غاية الضرر .

من هنا تكشفت حقيقة تعتبر بديهية فى غير مصر ، ولكن الظروف التى سبقت إنشاء الجامعة عندنا أحاطتها بكثير من الإبهام . هذه الحقيقة هى أن مدارس الدولة الابتدائية والثانوية تهيء أبناءها للالتحاق بالجامعات المدنية . وطبيعى لذلك أن يعد تعليم اللغة العربية فى مدارس الدولة إلى هذه الحياة الجامعية إعداداً تتم به الدورة التعليمية ، وأن يكون معلم اللغة العربية قد هيء للقيام بهذه المهمة على خير وجه . وقد هيء لها من أول تنشئته ، شأنه فى ذلك شأن غيره من معلمى المواد الأخرى . ولعل ما لوحظ من ضعف طلاب الجامعة فى اللغة العربية يرجع إلى أن هذه الشرائط لم تتحقق وإلى أن تعليم اللغة العربية فى المدارس الابتدائية والثانوية غير متصل بالتعليم الجامعى الاتصال

الواجب ، وهذا ماقرره الممتحنون فى كليات الجامعة المختلفة إذ رأوا ضعف الطلاب فى التعبير باللغة العربية تعبيرا صحيحاً .

فكرت وزارة المعارف فى السنوات الأخيرة فى التماس الوسيلة إلى علاج هذه الحال ، واتجهت فى تفكيرها فى هذا العلاج نحو الكتب التى تدرس وتقرأ فى المدارس الابتدائية والثانوية فتألفت فى يونيو سنة ١٩٣٥ لجنة من بعض رجال وزارة المعارف والجامعة لوضع كتب للقواعد والمطالعة للمدارس الثانوية ، كما تألفت لجنة أخرى لمراجعة هذه الكتب . وفى سنة ١٩٣٧ عدل تأليف اللجنتين. وفى أغسطس سنة ١٩٣٧ صدر قرار بتشكيل لجنة من بعض رجال وزارة المعارف لوضع كتب الدين وفق المنهج الحديث ، كما تألفت لجنة من بعض رجال وزارة المعارف والجامعة لوضع كتب فى تاريخ الأدب العربى والمحفوظات ولجنة أخرى من رجال الجامعة لوضع كتاب فى تاريخ الأدب للسنة التوجيهية.

هذا فيما يتعلق بالمطالعة الأصلية ، أما المطالعة الإضافية أو المطالعة الخاصة فكانت إلى سنة ١٩٣٥ مقصورة على مراجعة التلاميذ كتبا مختلفة يستعيرونها من المكتبات . وهى الكتب التى كانت تقتنيها الوزارة من مؤلفات المؤلفين المختلفين سواء فى مصر أو فى غيرها من الأقطار العربية . أو على كتاب يوزع على التلاميذ لقراءته فى البيت ، على أن التلاميذ لم يكونوا يعنون عناية كبيرة بهذه المطالعات ؛ لأنهم لم يكونوا يقومون بها مع أساتذتهم من ناحية ؛ ولأنهم لم يكونوا مسئولين عنها فى امتحان ولا فى غير امتحان من ناحية أخرى .

وفى سنة ١٩٣٥ فكرت الوزارة فى تزويد التلاميذ فى أثناء العطلة الصيفية بكتب يقرءونها ، فاقتنت مقادير كبيرة من كتب بعض المؤلفين المحدثين ووزعتها على التلاميذ .

لم تنجع هذه الوسائل للعلاج فأمعنت وزارة المعارف فى السنة الأخيرة التفكير فى الأمر وذهبت تلتمس أسباب الضعف تريد أن تشخصها ؛ ليكون

العلاج ناجعا منتجا . وآخر نظرية لوزارة المعارف فى هذه المسألة و فى غيرها من مسائل التعليم جميعا أن المعلم هو مصدر كل قوة وكل ضعف فى التعليم . فالمعلم الصالح يصلح البرنامج المعوج ويمهد السبيل أمام الوزارة بقوة حجته لتلافى أسباب الفساد . هو يشعر فى حبه لمهنته بضرورة العمل لأن تبلغ الكمال فهو بسعيه يهيء الوسائل إلى بلوغها هذا الكمال ؛ لهذا وجهت الوزارة همها إلى معاهد إعداد المعلمين ومن بينها دار العلوم تريد إصلاحها ، وذلك بعد أن درست أسباب الضعف وعلل المتاعب التى تواجهها فى هذا الطور الجديد من أطوار حياة مصر الذى يختلف اختلافا كبيرا عن الطور الذى سبقه .

٭٭٭

وقد تبينت الوزارة أن من أسباب الضعف فى تعليم اللغة العربية قصر اختيار الطلاب لدار العلوم من الحاصلين على الشهادة الثانوية للأزهر . ليس يرجع هذا الضعف إلى قلة فى الرغبة من جانب هؤلاء الطلاب ، ولا إلى ضعف فى حرصهم على أن يبلغوا الكمال ، كلا ، بل هم يجهدون أنفسهم ويبذلون كل مايستطيعون بذله للقيام بواجبهم كطلاب وكمعلمين . وإن كثيرين منهم ليبلغون فى أحيان كثيرة مقاما محمودا . لكن تأثرهم بطرائق التدريس فى الأزهر وبالكتب التى تدرس فيه وبغير ذلك من العوامل التى تسود بيئته . كل ذلك يضطر هؤلاء الطلاب إلى بذل جهد عنيف لتفهم النظريات الحديثة فى التربية وتطبيقها ، كما أن اختيارهم ذلك يجعل الصلة بينهم وبين التعليم الجامعى مقطوعة فى أول الأمر ، ويزيد لذلك فى مشقتهم . ثم إن اختيار معلمى اللغة العربية من طائفة واختيار معلمى سائر العلوم من طائفة أخرى كان سببا لمتاعب لم يقف أثرها عند التنافس الطائفى ، بل تعداه إلى أن الطرائق التى يسير عليها هؤلاء والطرائق التى يسير عليها أولئك تدفع إلى نفس التلميذ حيرة قد لا يعيها بعقله ، ولكنه يضطرب أمامها بفطرته . فهو بين هذه الطريقة وتلك يسلك سبيله إلى الجامعة ، فإذا بلغها تعقدت

طرائقها أمامه وصار فى حيرة حتى يتعرد الدراسات الجامعية، وقد يضيع عليه ذلك سنة أو أكثر من سنى الدراسة. وهذا فى رأينا هو سبب السقوط الفاحش فى السنوات الأولى من كليات الجامعة.

وقد لمست وزارة المعارف هذا الاضطراب بسبب اختلاف الطرائق فى تنشئة الأطفال أنفسهم حين قارنت بين من ينشئون فى رياض الأطفال وبين من ينشئون فى التعليم الأولى. هؤلاء وأولئك إذا اجتمعوا فى فرقة واحدة لم يستطع بعضهم أن يساير بعضا فى اللغة العربية بنوع خاص. فأما أبناء رياض الأطفال الذين تعلموا على الطريقة المتبعة فى مدارس البنات فيبدون ضعافا إلى جانب الذين يعلمون فى المدارس الأولية. وأما بنات رياض الأطفال اللائى يتلقين اللغة العربية على معلمة فى مدارس البنات فيسرن فى طريقهن ويتفوقن فى امتحان الشهادة الابتدائية على البنين. ومرجع هذا وذاك من الأمر إلى اختلاف الطريقة فى إعداد المعلم وفى إعداد المعلمة وفى الطريقة التى يتبعها كل منهما فى التدريس كنتيجة لهذا الإعداد.

أما والشأن ما تقدم فليس ثمة شبهة فى أن إعداد المعلمين لمدارس وزارة المعارف يجب أن يترك لوزارة المعارف لا يشاركها فيه أحد من بداية الأمر إلى نهايته، ويجب أن يعدل التشريع فى قوانين الأزهر وفى غير قوانين الأزهر بما يحقق هذه الغاية.

٭٭٭

وهنا شرح معالى الوزير طريقة تنفيذ فكرته فقال:

«وتطبيقا لهذه القاعدة التى تتفق وحدها مع المنطق ومع الدستور ومع مسئولية وزير المعارف البرلمانية، والتى أخذت بها الأمم المتحضرة كلها. لأنها تعتبرها من البديهيات التى لا تقبل جدلا — يجب أن تنظم العلاقة بين المعاهد الدينية ووزارة المعارف فى هذه الحدود. فأما إن حرصت المعاهد على استقلالها مع

بقاء نظامها الحالى فيجب أن تضم كلية اللغة العربية وكلية الشريعة إلى وزارة المعارف عودا إلى النظام الطبيعى الذى جعل مدرسة القضاء الشرعى ومدرسة دار العلوم تحت سلطان وزارة المعارف وإشرافها . وقد تكون هذه خطوة صالحه لتوحيد التعليم إذا أخذ معلمو اللغة العربية فى المعاهد الدينية ممن تعدهم وزارة المعارف لتعليم هذه اللغة .

وأما اذا رئى بقاء المعاهد الدينية بصورتها الحاضرة بعيدة كلها عن وزارة المعارف ، فإن هذه المعاهد يجب أن تكتفى فى أمر إعداد معلم اللغة العربية بإعداد معلميها هى ، ويجب أن تكون وزارة المعارف حرة تمام الحرية فى إعداد معلم اللغة العربية لمدارسها ، وفى اختيار من يصلح لهذا الإعداد .شأنها فى ذلك شأنها فى إعداد المدرسين لسائر المواد التى تعلم فى مدارسها » .

ثم ختم معاليه هذه المذكرة قائلا :

« هذه فكرة إجمالية عن تهيئة معلم اللغة العربية ومايجب أن تكون عليه فى مصر . ووزارة المعارف مقتنعة بأن اللجنة الموقرة ستوافقها عليها تمام الموافقة ، وأنها لذلك ستقترح إلغاء كل مايخالفها فى القوانين الحاضرة، وستبدى هذا الرأى لمجلس الوزراء تحقيقا لمصلحة الدولة، وحرصا على حياة اللغة نفسها » .

هل جني الشعر الجاهلي

على الأدب العربي ؟

للأستاذ على النجدى ناصف

المفتش بالمعـارف

قرأ الناس فى مجلة الثقافة بضع مقالات للعالم الأديب الأستاذ أحمد أمين ، بعنوان « جناية الشعر الجاهلى على الأدب العربى » . وقد حمل الأستاذ فى هذه المقالات حملة شعواء قاسية على الشعر الجاهلى والمحسنى الظن به ، ودعا فى غير تحرز ولا هوادة إلى نبذ كل أثر من آثاره قد يـكون عالقا بأدبنا الحاضر . وهو يرى أن السكوت عن هذا سكوت عن خطأ قديم ، وقع السلف فيه ، ولم يسلم الخلف منه جيلا بعد جيل . بل هو يرى هذا السكوت إذعانا لأسر مهين ، واحتفاظا بقيود ثقال ، ألغت شخصيتنا الأدبية ، ومنعتنا أن نفـكر بعقولنا ، ونعبر عن عواطفنا ووجداناتنا ، ونتحدث عن مشاكلنا ، وعن العصر الذى نعيش فيه والبيئة التى تحيط بنا ؛ فظل أدبنا على العهد به قبل النهضة الحاضرة — أقوالا مرددة ، وصوراً معادة مـكرورة .

وليس يعنينى فى هذا المقام أن أصف الدهشة التى شملت الناس ، والعجب الذى تولاهم حين قرءوا هذه المقالات ، واطلعوا على مافيها من الآراء والأفـكار . وليس يعنينى كذلك أن أبين سبب هذه الدهشة وذلك العجب : أهو شدة الخلاف بين مارأى الناس فى هذه المقالات ، وما اعتادوا أن يروا

فى سائر آثار الأستاذ : من أصالة الرأى ، والتوفيق فى البحث ، والاعتدال فى العرض والتعقيب ، أم هو شىء آخر يخالف ذلك كله ، أو يضاف إليه ؟ وإنما الذى يعنينى أن أتناول هذه الآراء بالنقد ، وأن أرد كل وجه من أوجه الخلاف إلى أصله الذى أراه له أصلا .

وهذا لا يعنى بالبداهة أننى أقدس الأدب العربى ، وأبرئه من كل مأخذ ، وأنزه أصحابه عن المؤاخذة ، كما يذكر الأستاذ عن ناقديه فى إحدى مقالاته ؛ فإنى لأعلم أن هذا الأدب ليس وحيا منزلا ، وأن أصحابه ليسوا أنبياء معصومين . كلا ، ولا ملائكة مقربين . وإنما معناه أن آراء الأستاذ فى هذا الموضوع غير مسلمة ولا متفق عليها .

وأول ما نقف عنده مع الأستاذ فيما ذهب إليه من رأى — هو جناية الشعر الجاهلى على الأدب العربى . فما تكون هذه الجناية ؟ وما مبلغ اتهامه بها من الحق والإنصاف .

هذه الجناية كما يراها الأستاذ — هى أن الشعر الجاهلى طغى على الأدب العربى فى جميع عصوره ، فصبغه بصبغته ، وخلع عليه من سمته؛ فإذا هو عصرى فى ظاهره ، جاهلى فى حقيقة أمره . وعندى أن الأستاذ لم يتحفظ فى عرض هذه الفكرة ، ولم يحدد معناه منها ؛ فإذا هى فضفاضة مرسلة ، فيها من الإسراف والمبالغة ، وفيها من الشيوع والانطلاق . فالأدب العربى قد تأثر بالشعر الجاهلى فى شتى العصور ، ما فى ذلك شك ولا جدال . لكن هذا التأثر كان طبيعيا ، وكان يختلف قوة وضعفا بحسب الظروف التى لابسته ، والأحداث التى تعرض لها .

ففى صدر الإسلام كان الشعر جاهليا فى جملته ، لم يطرأ عليه من ظواهر التغيير إلا القليل ؛ لقرب عهد الناس بالجاهلية ، وبقاء الحياة العامة على العهد بها فى الكثير من مناحيها ، ولا سيما حياة الكافة وسكان القاصية ومن يليهم . أما النثر فكان حظه من التغير أوفر ، وتأثره بالإسلام أوضح ؛ أن كان كتاب الله

نثرا لاشعرا . وحديث رسوله ﷺ أشبه الكلام بكلام الله ، بلاغة منطق ، وروعة بيان .

وفى العصر الأموى انبسطت رقعة الدولة ، وثبتت أصولها ، وعز سلطانها ، وفشا فيها الغنى . وتفرق الناس فى أقطار الأرض ؛ فرأوا حضارات لم يروها ، واطلعوا على عادات وأساليب لاعهد لهم بها ، وخالطوا أجناسا شتى ، فأخذوا عنهم ماأخذوا ، ورفضوا مارفضوا ، مع الاعتزاز بالعصبية العربية ، والاحتفاظ بخصائص العرب الراسخة ، ومزاياها المتوارثة ، فكان هذا العصر حقا عصر التهيؤ للانتقال من طور إلى طور ، عبرت فيه الدولة من طور البداوة أو شبيه بها ، إلى طور الحضارة المؤثلة والملك العريض . وكان الأدب على مثال الحياة الاجتماعية فى ذلك ، كان حدا وسطا بين طرفى القديم والحديث ، أو مجازا عبر عليه الأدب العربى من مرابع البداوة إلى مقاصير الحضارة ، كما قال أستاذنا الإسكندرى (رحمه الله) عن شعر بشار بن برد .

وفى العصر العباسى بذخت الحضارة ، واستبحر العمران ، وازدهرت الفلسفة ، وأينعت العلوم والفنون . واعتمد الخلفاء على الأعاجم فى توطيد سلطانهم وتدبير ملكهم ، والقيام على الصغير والكبير من أمورهم ، فاشتدت صولتهم وعظم خطرهم ، وما زال يعظم حتى صاروا آخر الأمر أصحاب الحل والعقد ، وأصبح الخليفة ، لاشأن له ولاسلطان ، وأصبح بقاؤه فى الخلافة رهينا بإرادة المتغلبين إن شاءوا عزلوه ، وإن شاءوا أبقوه . فتمازجت العرب والعجم ، ووهنت العصبية العربية ، وتمزقت الدولة مزقا شتى تكونت منها دويلات متنافسة متقاطعة ، لاتكاد تهدأ الحرب بينها أو تنقطع ، وانقرضت أجيال وخلفتها أجيال ، فتبدلت الحال غير الحال . وتغيرت عادات بعادات ، وحلت أساليب فى الحياة محل أساليب ، فتحول الأدب أيما تحول ، وشمله التغيير من كل جانب ، ولم يبق فيه من آثار الشعر الجاهلى إلا بمقدار مابقى فى القوم من آثار العروبية الأولى ، وسيأتى بيان ذلك فى شىء من الإيضاح والتحديد .

وفى عصر الجمود والتقهقر ركدت الحياة الأدبية أو كادت، وانصرف الأدباء عن الابتكار والتجديد، إلى أساليب من الصناعة الفارغة، والزخارف اللفظية التافهة، فلم يكن فى أدبهم من صراحة التفكير العميق، ولا جهد التغلغل والاستيعاب، ولم يكن فيه من سراوة الطبع السمح والخاطر المطواع، ولكن كان فيه من عبث الخليين، وتهافت المقلدين.

ولما جاء عصر النهضة تلفت الأدباء حولهم يبحثون عن مثال يحتذونه، وفيض يستمدون منه، فلم يجدوا مثلا أعلى، ولا فيضا أغزر مددا، وأعذب وردا من الأدب القديم، فأقبلوا عليه ينهلون منه، ويأخذون إخذ أصحابه فى التفكير وطرائق التعبير، ويمهدون للناس سبيله بالدعاية له، وإحياء مصادره، ونفى الشوائب عنه. وأنجح الله مسعاهم، فحى الأدب القديم، ولاقى مايستحق من حفاوة وإقبال، فاصطبغ به أدب النهضة فى مستهل أمره، ولا يزال متأثرا به إلى اليوم. وأعتقد أن ستبقى الصلة بينهما ممدودة، مهما تمتد به الأيام، ويتوارد عليه من أسباب الخلاف، فكل فرع إلى أصله ينزع، ولو فى المشابه العامة، والخصائص النوعية.

يتضح من هذا البيان أن الأدب العربى فى عصوره المختلفة كان يساير حياة الناس، ويتأثر بما يقع فيها من أحداث، وما تمر به من أطوار وتقلبات، وأنه كان مع ذلك موصول الأسباب بالشعر الجاهلى فى جميع العصور، وإن اختلفت الصلة بينهما بحسب الظروف والملابسات. وما كان الأدب وهو يجرى على هذا السنن حيال الشعر الجاهلى — بدعا فى الطبيعة، ولا شاذا من شواذها، ولكنه كان يجرى على نمط مألوف، يقتضيه التسلسل والتشعب، وأحسب أنه على اتفاق مع قانون الوراثة فى الأحياء. فلا ندرى إذا كيف يسمى ذلك جناية، وكيف يستحق الشعر الجاهلى بسببها غضب الأستاذ ونقمته؟

على أن هذه الظاهرة ليست خاصة بالشعر الجاهلى ولا متصورة عليه.

فما من عصر إلا فيه شية مما قبله ، وله أثر فيما بعده . ذلك لأن لكل عصر نتاجه الذى يحيا فيه ، وتمتد به الحياة إلى الذى يليه ، على تفاوت فى مدى العمر ومبلغ الحياة . وقد يكون فى بعض الأحيان إنسانيا خالدا ، يرتفع عن القيود والحدود، فإذا كانت هذه جناية فهى من آداب العصور السالفة عامة ، على آداب العصور الخالفة عامة كذلك ، وإذا هى جناية م.زعة التبعة ، تشترك فيها الآداب فى جميع العصور . فما قصرها إذا على العصر الجاهلى ؟ ألأنه كان أشد العصور تأثيرا ، وأوفرها من هذه (الجناية) نصيبا ؟ إن كان ذلك فدليل الحيوية وشدة الأسر. وتلك إذا مزية تذكر له ، ويحمد بها ، وليست منقصة تغض منه ، ويتهم لأجلها بالجناية .

إنا لنبخس هذا الشعر فضله ، ونزرى بقيمته الفنية الخالدة ، إذا كان كل ماند كر عنه فى هذا المقام أنه برىء من تهمة الجناية التى ألصقت به إلصاقا ، من قبيل تسمية الأشياء بغير أسمائها ، ووصفها بضد ماتستحق من صفات ، ونحس فى قرارة أنفسنا أن واجب الإنصاف وعرفان الجميل يقتضينا فى غير هوادة أن نشيد بجزيل عائدته وجميل أثره فى الأدب وتاريخه، واللغة ومايتصل بها ويتفرع عنها من العلوم والفنون . فالشعر الجاهلى قد حفظ لنا صورا فنية خالدة ، تمثل بيئة الجاهلية ومايضطرب فيها من أحياء ، ويتراءى من مشاهد الطبيعة وأفاعيل الانسان ، وتمثل حياة الجاهلية وما كانت تجيش به من عواطف ووجدانات ، وتخضع له من تقاليد وعرف ، ويشيع فيها من عادات ، ويقع من أحداث ، ثم هو قد أمد اللغة بثروة ضخمة من المفردات والتراكيب المختلفة تجول فى شتى مطالب التعبير ، وتترجم عن ألوان كثيرة من المعانى . وإليه اتجه العلماء وواضعو العلوم اللسانية يستنبطون أصولها ، ويؤثلون قواعدها ويلتمسون لها الشواهد ، ويصححون الأخطاء ، ويستوضحون المستبهم ،

ويحلون المشكل ، فهو قد أدى رسالته فى خدمة اللغة والأدب وما يتصل بهما كأحسن مايؤديها الشعر ، وعلى وجه لانكاد نعرف له مثيلا .

أما لو أن الشعراء والأدباء الذين خلفوا شعراء الجاهلية عصرا بعد عصر — نظروا إلى الشعر الجاهلى كما ينظر الأستاذ أحمد أمين إليه ، فأغفلوا أمره . وقطعوا صلتهم به ، لاستغلق أمره على الخالفين ، وصار فى الأذواق بعد حين كلامامر ذولا ، وفنا مستكرها ، لايستسيغه إلا خواص الخواص من المنقطعين لدراسة الآثار البالية ، والتنقيب عن العاديات البائدة . لكنهم أبوا لحسن الحظ إلا أن يمضوا على سننهم القويم ، فإذ الأدب فى جميع العصور امتداد للأدب الجاهلى ، وتفريع منه ، وزيادة عليه ، رعاية لمقتضيات الزمن . ومسايرة له فى أطواره ، وحفاظا على الأصول الأولى أن تنقطع الصلة بها مع الأيام ، فيتناكر الماضى والحاضر ، ولايتفاهم الأول والآخر .

ويرى الأستاذ الفاضل أن التغيرات التى طرأت على الشعر فى العصر العباسى لاتعد تغيرات ذات بال ؛ لأنها لم تصل إلى الصميم ، بل وقفت عند الحواشى والأطراف ، فلم تمس الوزن والقافية ، ولم تتناول الحياة الاجتماعية بالوصف المستفيض والتحليل الدقيق . وهو يعزو هذا القصور فيه إلى طغيان الشعر الجاهلى عليه ، واستبداده به ، يوجهه وجهته ، ويملى عليه إرادته .

ونحن إذ نرجع إلى الشعر العباسى فنبتليه من هذه الناحية — نراه قد أوفى على الغاية المأمولة ، وأدى الرسالة على النحو الذى يريد الأستاذ ، فاستحدث المستطيل والممتد والموشحات فى الأوزان ، وكثر النظم من البحور التى لم تستكثر العرب منها ، كالمضارع ، والمجتث ، والمتدارك ، واستحدث التسميط ، والتخميس ، والازدواج فى القافية وتغيرت الألفاظ والمعانى تغيرا كبيرا ، بما دخل عليه من الرقة ، والعذوبة . والإطلاق ، والتقييد ، وما استجد من الأساليب وطرق الأداء ، وشاع من الزخارف والتأنق وحسن الترتيب وإحكام الصنعة ،

وما اخترع من الأخيلة والتشبيهات ، والتزم من الافتنان فى إزجاء الخواطر وعرض الفكر . أما الموضوعات فالتغيير فيها شامل مستفيض ، تناول الحياة من كل ناحية ، ودخل عليها من كل باب : فجد وهزل ، وتقوى وزهد ، وخلاعة ومجون ، وشراب وندمان ، ونساء وغلمان ، وطرد وصيد ، وسياسة وحكم ، ودعاية وأحزاب ، وفلسفة وحكمة ، وديانة ومذاهب ، وقوانين وأنظمة ، وليل ونهار ، وسماء ونجوم ، وشمس وقمر ، وسحاب وأمطار ، وأرض وأجواء ، ومياه ورياض ، وأزهار وثمار ، وطير وحيوان ، وآلات وأدوات ، وسلم وحرب ، وكرّ وفر ، وخوف وأمن ، وغير هذا أو أشباهه مما يطول تعداده ، وتشق الإحاطة به . ولولا مخافة الإطالة وأن كتب الأدب ودواوين الشعراء زاخرة بذلك كله لسقنا له الشواهد ؛ ليستيقن الذين يرتابون ، ويزداد الذين آمنوا إيمانا .

ومن آثار هذا العصر الأدبية ما يتسع لبعض مشاكلنا الحاضرة، ولا يقصر عن الإلمام ببعض مخترعاتنا العتيدة ، كأن أصحابها يوم قالوها فى موضوعاتها كانوا ينظرون بالغيب إلى أشباه لها ونظائر ، ستتمخض عنها العصور المستقبلة.

فهذه سياسة العالم اليوم ، يتنازعها فريقان يختصمان : فريق يتنزى للغزو وبسط السلطان ، كأنه لا يكترث فى سبيل هـــذه الغاية لما يصيب العالم من خراب وتدمير . وفريق يجنح للسلم ، ولكن فى غير ذلة ولا استخذاء ، ويتخذ الأهبة للطوارىء الفاجئة فى غير اعتداء ولا استفزاز. فهل من الشعراء المعاصرين من لخص هذه السياسة بأصدق وأجمع مما لخصها أبو الطيب المتنبى إذ يقول :

وكأنا لم يرض فينا بريب الد ... هر حتى أعانه من أعانا
كلما أنبت الزمان قناة ... ركب المرء فى القناة سنانا
ومراد النفوس أصغر من أن ... نتعادى فيه ، وأن نتعانى
غير أن الفتى يلاقى المنايا ... كالحات ، ولا يلاقى الهوانا
ولو ان الحيـــاة تبقى لحى ... لعددنا أضلنا الشجعانا

وإذا لم يكن من الموت بد فمن العجز أن تكون جبانا
كل مالم يكن من الصعب فى الأنـ ـفس سهل فيها، إذا هو كانا

وهذا ابن هانىء الأندلسى يصف الخيل فى إسراع عدوها، فكأنما يصف الطائرات فى إسراع طيرانها قال:

وصواهل لا الهضب يوم مغارها هضب، ولا البيد الحزون حزون
عرفت بساعة سبقها، لا أنها علقت بها يوم الرهان عيون
وأجل علم البرق فيها أنها مرت بجانحتيه وهى ظنون

ويصف المتنبى سيرورة شعره، وشيوع روايته فى الآفاق، فإذا هى كواصف الإذاعة بالواحى، تجتاز العامر والغامر، وتقتحم السهل والحزن، لا يعوقها عائق، ولا تحدها حدود. قال:

فشرّق حتى ليس للشرق مشرق وغرّب حتى ليس للغرب مغرب
إذا قلته لم يمتنع من وصوله جدار معلى، أو خباء مطنب

وقال:

وعندى لك الشرد السائرا ت، لا يختصصن من الأرض دارا
قواف إذا سرن عن مقولى وثبن الجبال، وخضن البحارا

فلا ندرى بعد هذا مامراد الأستاذ الكبير بقوله: إن التغيرات التى اعترت الشعر العباسى لم تمس الوزن والقافية، ولم تتناول الموضوعات من الصميم؟ أتراه يقول مايقول عن تغيرات الموضوعات؛ لأن الشعراء فى أغلب الأحوال لم ينشئوا فى هذه الفنون الجديدة قصائد خاصة وإنما تصدوا لما تصدوا له منها عرضا فى قصائد المدح وغيره؟ إن كان هذا هو السبب فليس فيه ماينتقص الشعر العباسى أو يعيبه، مادامت الغاية محققة، والمطلوب مدركا. وماجناية الشعر الجاهلى فى ذلك، وهو لا يعرف الكثير من موضوعات هذا الشعر، ولا تعلقت بمعانيها خواطر شعرائه؟ وإنما وجه الشعراء وجهة الكسب بالشعر،

وجعل المدح أول مقاصدهم به — ظروف الحياة الاجتماعية نفسها ، ورضا أولى الجاه والثراء عن هذا الضرب من الزلفى ، وتشجيعهم على الافتنان فيه والاستكثار منه ، ببذل الرغائب وإسناء الجائزة .

ويعزو الأستاذ ماينسبه إلى الشعر الجاهلى من التمكن والغلبة إلى دعاية الرواة وأئمة اللغة من أمثال الأصمعى ، وأبى عمرو بن العلاء ، وابن الأعرابى . ولاخلاف أن هؤلاء السادة كانوا بحكم ثقافتهم ، ووحى رسالتهم التى تجردوا لأدائها — يتعصبون للشعر الجاهلى ، ولايحتجون بغيره إلا ماكان من شعر المخضرمين والإسلاميين ولكن أنى لهم تأثير السحر فى إعلاء كلمة الشعر الجاهلى وبسط نفوذه ، وكيف ظهرت على أيديهم المعجزة التى هيأت لهم اجتذاب الناس إلى طريقتهم ، وإغراء الشعراء بترسم خطا سلفهم من الجاهليين فى مذاهب الشعر وموضوعاته ؟ يقول الأستاذ : إنهم كانوا لدى الخلفاء أسمى مكانا وأنفذ رأيا ، وكانوا فى الناس أقوى ناصرا وأكثر شيعة ؛ ثم إنهم مكروا بالناس ، واستغلوا عواطفهم الدينية لبلوغ أربهم ، فوصلوا الشعر الجاهلى بتفسير القرآن الكريم ، وزعموا أنه يعين على تفهم مفرداته ، والكشف عن المكنون من أسراره .

والمعروف أن مكانة الشعراء عند الخلفاء لم تكن أقل من مكانة الرواة ومن إليهم ، إن لم تكن فى بعض الأحوال على الأقل — أرفع شأنا ، وأمنع جانبا ، فإن الشعراء ينتجون وهؤلاء يجمعون ، أوهم فى الواقع رواة منتجون ، ومنهم طائفة لاتقل عن الرواة المتنطعين غزارة رواية ، وتدفق حفظ ، وهم بعد يملكون مالايملك غيرهم من تأييد السلطان ، ومحاجة الخصوم ، ونشر المزية ، على نمط يكفل لها الذيوع وقوة الأسر ، صنيع الصحف السيارة فى العصر الحاضر أو أشد ، فلو نشبت حرب بين الفريقين لكان النصر فيها للشعراء لامحالة .

وليس أدل على خلوص نية هؤلاء الأئمة ، وانتفاء الهوى عن مذهبهم فى

الاجتماع من أنهم إلا قليلا جدا — لا يجيزون الاستشهاد بأحاديث رسول الله على إثبات اللغة والاحتجاج لقواعدها .

روى البغدادى عن أبى حيان فى شرح التسهيل قال : « قد أكثر المصنف من الاستدلال بما وقع فى الأحاديث على إثبات القواعد الكلية فى لسان العرب ومارأيت أحدا من المتقدمين والمتأخرين سلك هذه الطريقة غيره . . . وإنما كان ذلك لأمرين : أحدهما أن الرواة جوزوا النقل بالمعنى . فتجد قصة واحدة قد جرت فى زمانه ﷺ لم تقل بتلك الألفاظ جميعها نحو ماروى من قوله : زوجتكها بما معك من القرآن ، ملكتكها بما معك من القرآن . خذها بما معك من القرآن ، وغير ذلك من الألفاظ الواردة ، فنعلم يقينا أنه ﷺ لم يلفظ بجميع هذه الألفاظ ، بل لانجزم بأنه قال بعضها ؛ إذ يحتمل أنه قال لفظا مرادفا لهذه الألفاظ ، فأتت الرواة بالمراد ، ولم تأت بلفظه . . . الأمر الثانى أنه وقع اللحن كثيرا فيما روى من الحديث ؛ لأن كثيرا من الرواة كانوا غير عرب بالطبع ، ويتعلمون لسان العرب بصناعة النحو ؛ فوقع اللحن فى كلامهم وهم لايعلمون ، ودخل فى كلامهم وروايتهم غير الفصيح من لسان العرب »(١) .

وكذلك لم يكن هؤلاء الأئمة خادعين ولا مضللين حين ربطوا الأدب الجاهلى بتفسير القرآن الكريم ، بل كانوا بررة أتقياء مخلصين ، يقرنون كلام العرب إلى كلام الله ، احتجاجا له ، وتبيينا لمكنون سره ، فيقيس الناس مالا يعلمون من كلام العرب ، ويرون عن بينة كيف يكون الكلامان من نوع واحد ، وبلسان واحد ، ثم يختلفان فى المرتبة والمزية جدا ، ويبتعد الفرق بينهما بعد مابين المشرقين ، فيكون أحدهما معجزا غاية الإعجاز ، لاتستطيع الإنس والجن جميعا أن يأتوا بمثله ، ويكون الآخر ممكنا غاية الإمكان ، لا يستعصى على علاج الكفاة ومحاولة الأنداد . وفى هذا تثبيت لأفئدة المؤمنين ، وتمكين

(١) خزانة الأدب : ١ : ٢٤ ، ٢٥

لرسالة النبى وتأييد لحجته الخالدة على هدى وبصيرة .

على أن النواسى وأبا تمام اللذين يضربهما الأستاذ مثلا للشعراء المجددين ، الذين أوذوا فى سبيل التجديد ، بما بخس بعض الأئمة من جهدهم فيه ، وما أثاروا حولهم من دعاية السوء بسببه — لانرى فى أطوار حياتهما، ولا فى المأثور من أخبارهما أن أحدهما أو كليهما حورف فى حظه ، أو أقصى عن منزلته بسبب التجديد .

فهذا أبو نواس على ماشاع من خلاعته واستهتاره ، بل فسوقه وإرفاثه . قد اتصل ببعض الأمراء وعمال الولايات ، ومدح الرشيد ، وانقطع لمدح الأمين ، ونال جوائزهم جميعا . وأقر أئمة اللغة والأدب بفضله ، وأثنوا على عبقريته ونبوغه . قال أحمد بن يوسف الكاتب : «لقد وصف أبو نواس الخمر وصفا لو سمعه الحسنان (الحسن البصرى وابن سيرين) لهاجرا إليها ، واعتكفا عليها» . وقال الجاحظ : «وأما بشار وأبو نواس فمعناهما واحد ، والعدة اثنان . بشار حل من الطبع بحيث لم يتكلف قط قولا ، ولا تعب من عمل شعر ،وأبو نواس حل من الطبع بحيث يصل شعره إلى القلب بلا إذن» . وقال المبرد : «ماتعاطى قول الشعر أحد من المحدثين أحذق من أبى نواس» . وروى الثعالبى : «أجمع أهل العلم بالشعر على أن أجود بيت للمحدثين فى المدح قول أبى نواس:

وكلت بالدهر عينا غير غافلة بجود كفك تأسو كل ماجرحا

وقال أبو عبيدة : «أبو نواس للمحدثين مثل امرىء القيس للمتقدمين . . . بل لقد كان بعض النساك يستنشد شعره ويعجب به . روى أن سفيان بن عيينة قال لرجل من أهل البصرة : أنشدنى لأبى نواسكم ، فأنشده :

ماهوى إلا له سبب يبتدى منه وينشعب

فقال سفيان : آمنت بالذى خلقه . وعجب سفيان أيضا من قوله .

ياقمرا أبصرت فى مأتم يندب شجوا بين أتراب

يبكى فيلقى الدر من نرجس ويلطم الورد بعناب [١]

واستشهد صاحب الكافية فى باب المبتدأ والخبر بقوله :

غير مأسوف على زمن ينقضى بالهم والحزن [٢]

ولم يكن أبو تمام بأقل حظا من صاحبه ، بل لقد أربى عليه وفاقه. اتصل بالمعتصم ، وحظى عنده ، ومدح وزيره محمد بن الزيات ، والحسن بن وهب وغيرهما ، ورحل إلى كبار العمال بممالكهم ، ومدحهم بالقصائد الخالدة،فقربوه منهم إلى حد الصداقة ، ورغبوا به عن التكسب بالشعر ، وولاه الحسن بن وهب بريد الموصل ، فأقام به أقل من سنتين ، وتوفى [٣].

واستشهد صاحب الكافية فى المبتدأ والخبر أيضا بقوله :

على مثلها من أربع وملاعب تذال مصونات الدموع السواكب [٤]

واستشهد كذلك صاحب الكشاف على تعدى الفعل أظلم فى قوله تعالى : « وإذا أظلم عليهم قاموا » — بقوله :

هما أظلما حالى ثمت أجليا ظلاميهما عن وجه أمرد أشيب

ثم قال : وهو وإن كان محدثا لا يستشهد بشعره فى اللغة فهو من علماء العربية فاجعل مايقوله بمنزلة مايرويه . ألا ترى إلى قول العلماء : الدليل عليه بيت الحماسة فيقتنعون بذلك ؛ لوثوقهم براويته وإتقانه [٥] ؟

فأنت ترى أن ماقيل عن أبى نواس وأبى تمام ، مما يرويه الأستاذ عن بعض الأئمة ، ويتأول فيه أذى لهما ، ومثلا من جنايات الشعر الجاهلى على الشعر العربى،

---

(١) أدب اللغة العربية فى العصر العباسى ، ص ١٦١ — ١٦٣ ، وخزانة الأدب : ١ · ٣١٥

(٢) خزانة الأدب : ١ · ٣١٣

(٣) أدب اللغة العربية فى العصر العباسى ، ص : ١٧٥

(٤) خزانة الأدب . ١ . ٣١٦

(٥) الكشاف : ١ : ٣٥

أو من جنايات الجمود على التجديد — ترى كل ذلك كأنه لم يقل ، ولم يسمع الناس به . وإلا فأين أثره ، وأين موضع الشكاة منه ؟ وقد نال كلا الرجلين على ماأسلفنا — حظه المقسوم فى الحياة ، ونال من أئمة اللغة وأساطين الأدب وأصحاب الجاه والسلطان غاية مايستأهل من الثناء وحسن التقدير ، أداء لحق العبقرية والنبوغ ، كأفضل مايؤديه الحر الكريم المنصف ، برغم ماجناه أبو نواس على الفضيلة والأخلاق ، بما كان يشيع من الفواحش ، ويحرض عليه من المآثم .

والذين قالوا عن أبى تمام : إنه خرج على عمود الشعر ، حين رأوه يحيد عن المألوف فى بعض مذاهبه الشعرية — لم يصدروا فى هذا عن انتقاص لفضله ، أو غض من شأنه ، وإنما كانوا يصدرون عن رأيهم فى الشعر ، وفهمهم لطريقة تعبيره عن خواطر الشعراء . فهم كانوا يرون أن الشعر لا شأن له بالفلسفة ، ولا ينبغى للشاعر أن يتناول موضوعه على نمط الفيلسوف بل على نمطه المألوف ، القائم على الملاحظة الغريبة ، والفكرة القريبة ، والعاطفة الرقيقة ، والإحساس المتيقظ ، والخيال السرى ؛ لئلا تعتاص معانيه ، ويشيع سوء التأليف فى تراكيبه . ولهذا قالوا : أبو تمام والمتنبى حكيمان ، والشاعر البحترى ؛ إذ كان أكثر منهما التزاما لهذه الطريقة ، وأشد منهما انطباعا عليها ، واقتدارا على الافتنان فيها . ومانرى فيما قالوا تفضيلا للبحترى على صاحبيه ، ولكن نرى فيه وضعا له ولهما بالموضعين اللذين يتفقان مع رأيهم فى الشعر ، وفهمهم لرسالة الشاعر .

ونحن نعجب كيف يرى الأستاذ أن مجرد وصل الأدب الجاهلى بالتفسير ، وهو بعض ما جاء الإسلام به — كان كافيا لإغراء الناس بهذا الأدب ، واحتفالهم له ، وتهالكهم على دراسته ، وتقديس كل مافيه من أمثال وقصص وأخبار ، ثم لايكون الشعر الإسلامى نفسه أثيرا مقدما ، وهو قد نشأ فى كنف الإسلام ، وترعرع على عينه ، وتأثر به تأثرا بالغا ، ومنه ماقيل دفاعا عن النبى ، وردا على منكرى رسالته ، وتشيعا لآل بيته الكريم ؟

وعندنا أن الشعر الجاهلى إنما فتن الناس به ؛ لأنه أدب الطبع الخالص ، الجارى على سنن الفطر البريئة من تكلف الصناعة ، واضح المذهب ، قريب المتناول ؛ صادق التعبير ، مرسل الصياغة . فهو أقرب إلى الطبع صلة ، وأخف على النفس مئونة ، وألطف إليها مدخلا ، وأجمل منها موقعا . ولبعض هذه الأسباب يلقى الأدب الخفيف من الارتياح والإقبال مالا يلاقى مثله الأدب العويص ، ويخف الناس للتمثيل والخيالة ، ويتثاقلون عن محاضرات العلوم والفنون . ثم إن قدامى المؤلفين فى الأدب قدروا الأدب الجاهلى حق قدره ، فأطروه إطراء جميلا ، ولم يغفلوا الحديث عنه وإيراد الأمثلة منه .

قال الجاحظ : «ليس فى الأرض كلام هو أمتع ولا أنفع ، ولا آنق ، ولا ألذ فى الأسماع ، ولا أشد اتصالا بالعقول السليمة ؛ ولا أفتق للسان ، ولا أجود تقويما للبيان من طول استماع حديث الأعراب الفصحاء العقلاء والعلماء البلغاء» (١) . وقال : «وكل شىء للعرب فإنما هو بديهة وارتجال ، وكأنه إلهام . وليست هناك معاناة ولا مكابدة ، ولا إجالة فكر ولا استعانة . وإنما هو أن يصرف وهمه إلى الكلام ، وإلى رجز يوم الخصام ، أو حين أن يمتح على رأس بئر ، أو يحدو ببعير ، أو عند المقارعة والمناقلة ، أو عند صراع ، أو فى حرب ، فما هو إلا أن يصرف وهمه إلى جملة المذهب ، وإلى العمود الذى إليه يقصد ، فتأتيه المعانى أرسالا ، وتنثال عليه الألفاظ انثيالا ، ثم لا يقيده على نفسه ، ولا يدرسه أحدا من ولده . وكانوا أميين لا يكتبون ، ومطبوعين لا يتكلفون . وكان الكلام الجيد عندهم أظهر وأكثر ، وهم عليه أقدر وأقهر . . . . ونحن (أبقاك الله) إذا ادعينا للعرب أصناف البلاغة من القصيد والأرجاز ، ومن المنثور والأسجاع ، ومن المزدوج ومالا يزدوج ، فمعنا العلم على أن ذلك لهم شاهد صادق من الديباجة الكريمة ، والرونق العجيب ، والسبك والنحت الذى

(١) البيان والتبيين : ١ : ٨١

لايستطيع أشعر الناس اليوم ولاأرفعهم فى البيان أن يقول فى مثل ذلك إلا فى اليسير » [١].

أما أيام الجاهلية فمرجع الأمر فى إعظام قدرها ، والإعجاب برجالها ، والارتياح لرواية أنبائها — إلى براعة القصاص فى تفخيم أحداثها بروعة التخيل وجهارة التهويل ، وإلى حسن افتنانهم فى تصوير الأبطال ووصف محامدهم من الشجاعة وبعد الهمة ، والسخاء والنجدة ، والوفاء بالعهد ، وإباء الضيم ، وحماية الذمار ، وهلم جرا . يتخلل هذا وذاك حوار ممتع ، وشعر أخاذ ، كله خفة وظرف ، وحكمة وأدب ، ثم إن أيام الجاهلية كانت أقدم عهدا من أيام الإسلام ، والنفس شيقة إلى البعيد ، حريصة على تعرف أنبائه ، والاحاطة بدخائله ؛ لما فيه من الغرائب والأعاجيب ، ولا كذلك القريب المألوف .

وسبب آخر : أن أيام الجاهلية إنما تنطوى على مفاخر خاصة ، تتفاضل بها القبائل ، وترجح إحداها الأخرى فى السيادة والمجد ؛ إذ كانت القبيلة عندهم هى الوحدة التى ينتسب إليها الفرد ، وتتعاون لخيرها الجماعة ؛ فرواية أيام الجاهلية رواية أخبار مجد تليد ، وإحياء ذكرى سيادة ذاهبة ، للخلف فيها فخر ، وله بها دالة واعتزاز ، أما أيام الاسلام فالفضل فيها لأصحاب دين على أصحاب دين آخر ، لاذكر فيه للقبيلة ، بل لاذكر فيه للوطن والجنس ، فالفخر بها شائع شامل ، والمزية موزعة على التعميم .

يدعو الأستاذ بعد هذا فى غير تحفظ ولاتوقف إلى التحلل من قيود الوزن والقافية كما وضعتها العرب فى الجاهلية . وهى دعوة جريئة ، والمراد بها مع ذلك غير مفهوم . فهل تراه يريد أن يبتدع كل شاعر مايشاء لشعره من الأوزان لايرعى فى ذلك قانونا ، ولا يرجع إلا إلى ذوقه وإرادته ؟ أم هل تراه يبيح ذلك فريقا بعينه من الشعراء ، لايشركهم فيه شريك ، ولا يتطاول إلى مجاراتهم

(١) البيان والتبيين ، ٣ : ١٢ .

فى ميدانه منازع ؟ إن تكن الأولى فالفوضى لايكاد يعرف معها للشعر نغم، أو تفهم لهم موسيقا ، فيضعف تأثيره ، ويضطرب رنينه ، ولا يستقيم لغير صاحبه أن يقرأه قراءة موزونة ، لأن الوزن كما لايخفى - يقتضى تغييرات شتى فى نطق بعض الكلمات بتسهيل المهموز وقطع الموصول ، ومد المقصور ، وقصر الممدود ، وتسكين المتحرك ، وصرف الممنوع من الصرف ، ونحو ذلك . لأن العربية لغة شكل وإعراب . وهيهات أن يدرك الناس هذه التغيرات على وجهها ، مأخوذين باتساق الأنغام ، إلا إذا اعتادوا موسيقا الوزن ، وطال استماعهم لها ، وتمرسهم بجرسها . وكيف يمكن من هذه الفوضى تمرس واعتياد. وإن تكن الأخرى فقد رجعنا إلى مايسميه الأستاذ نوعا من السجن لا يليق بأمة راقية أن ترضى به أو تسكت عنه . ثم من هؤلاء الذين يستأثرون بهذا (الامتياز) من الشعراء ؟ ومن الذى يختارهم ؟ وكيف يكون اختيارهم ؟ أتؤلف لذلك حكومة يوكل إليها حق المنح والحرمان . فلا ترد لها إرادة ، ولايخالف لها أمر ؟ الحق أن المسألة كما أسلفنا غير مفهومة ولامحدودة .

ثم يقول الأستاذ : إن التزام القافية كما التزمها شعراء الجاهلية قد حرم الشعر العربى الملاحم والقصص الطويلة . ونحن نرى أن خلو الشعر العربى من الملاحم إنما يرجع إلى سبب آخر يتصل بطبيعة العقلية العربية والخيال العربى، لا بالقافية ونظامها الحاضر، ولو أن الشاعر العربى أحس حاجة إلى هذا النوع من القصيد ، وتعلقت نفسه بنظمه لاحتال له ، وذلل العقبات التى تعترض دونه ، أيا كان نوعها . ثم إننا لانرى على الشعر العربى من بأس أن خلا من الملاحم ، فلكل أدب طبيعته ومزاياه المستمدة من طبائع أهله وخصائصهم وهيهات أن يجتمع فى أمة واحدة خصائص الناس جميعا ، فيجتمع فى أدب واحد خصائص الآداب كافة . أما أن القافية على نظامها الحاضر حرمتنا القصص الطويله الممتعة فغير مسلم ، ولانرى أن الشاعر يعيا بهذه القصص مع التزام

القافية إلا إذا كان بكيئا قليل البضاعة ، فج الملكة . أما الشاعر المتمرس الفياض الطبع ، الوافر الذخيرة ، فلا .

وهذا شوقى (رحمه الله) وضع قصصه البارعة شعرا عربيا خالصا ، دون أن يشكو ضيقا ، أو يجد عنتا من القافية . فمن آنس من نفسه المقدرة فليتقدم ، والسبيل أمامه ميسرة ، والمحاولة مجدية . ومن لم يجدها ففى النثر له متسع، وليس بضائره ولا بضائر الأدب واللغة ألا يكون شاعرا .

إن الدعوة إلى نبذ القافية جملة دعوة سخيفة ، وليس لها سند من ذوق أو نظام ؛ لأنها تفضى إلى تعدد مقاطع الأبيات ، واضطراب النمط فى تأليفها . وخلو الشعر منهما يحرمه سمة من أبرع سماته ، ويجعله أشبه بالمنثور ، وأجدر أن يتسمى باسمه ، ويضاف إلى جملته ، بل إنه يجعله مسخا شائها ، ولونا من القول مذبذبا ، لا إلى الشعر ولا إلى النثر ؛ فإن من طبيعة النثر الاسترسال والانطلاق ، وهذا مقيد بالوزن فى صياغته ، مطلق من كل قيد فى قوافيه : كالشقة من الديباج أحكمت رقعتها نسجا واتساقا ، وأغفلت طرتها ، فإذا هى ناسلة مفككة .

وينكر الأستاذ أن يقول الناس الشعر فى الموضوعات التى قالت الجاهلية فيها ، مدحا ، ورثاء ، وهجاء . ولا نرى فى ذلك موضعا للإنكار أو الزراية ، فالمدح والرثاء من الموضوعات الانسانية العامة ، لاتختص بعصر دون عصر ، ولا بأمة دون أمة ، فاستحسان المحاسن ، واستقباح المقابح كلاهما طبيعة فى الإنسان ، تدفعه إلى الإعجاب والإطراء ، أو الاشمئزاز والهجاء . والحزن على فقد الأعزة شعور غلاب يهيجه الوفاء والمرحمة ، أو ألم الفوت والحرمان . وقد تترجمه العيون بكاء ، والألسنة رثاء . فلا على الشاعر أن يمدح ويرثى ويهجو ، وأن يقول فى كل فن سبق إليه الأقدمون ، كلما جاشت نفسه بالقول فيه . فما التجديد أن تقول فى الموضوع الجديد وكفى ، ولا الجمود أن تقول كذلك فى

الموضوع القديم وكفى . إنما التجديد فيما تأتى به من المعانى المبتكرة، والتوليدات العجيبة ، وماتقع عليه من الآفاق المجهولة ، التى تزيد فى ثروة الفكر الإنسانى . والجمود أن يلغى المرء عقله ، ويعطل حسه ، ويردد أفكار غيره، وإن كان الموضوع طريفا . والأستاذ حين يطالب إلى الشعراء أن يمسكوا عن القول فيما قال الأقدمون فيه لمجرد أنهم سبقوا إليه — إنما يتحكم فى فنهم ، ويملى عليهم إرادته ، ويوجههم الوجهة التى يراها ، وهو ماينكره أشد إنكار ، ويدعو بقوة إلى الخلاص منه .

ينعى الأستاذ بعد هذا على الأدباء أن يستعملوا أمثال الجاهلية وكناياتها، المنتزعة من بيئتها ، مثل : أخذ الشىء برمته ، وألقى حبله على غاربه ، وليس فى العير ولا فى النفير ، وعلى طرف الثمام ، وأعق من ضب . . . . . ونرى أن هذا إسراف فى الرأى شديد ، معناه قطع الصلة بين اللغة وأصلها الأول ، والقضاء على كثير من التراكيب والتعبيرات الجامعة ، تصطنع فى ألوان من المعانى شتى، دون أن يكون فى الإبقاء عليها غضاضة ، أو فى استعمالها مجانبة للصدق فى التعبير، كما يذهب إليه الأستاذ ، فكثير منها تنوسيت معانيه الأصلية ، وأصبح يستعمل عند جمهرة المتكلمين فى معانيه الحاضرة استعمال الحقائق العرفية . فالذى يسمع: أخذه برمته مثلا ، يفهم منها لأول خطرة أخذه جميعه ، لا أنه يفهم معناها الأصلى أولا ، ثم معناها العرفى بعد ذلك ، مثلها فى هذا كمثل الكثير من الكلمات التى تصرف أدباء العصر الحاضر فى استعمالاتها من مثل : منطقة الامتياز ، وقطار البحر ، وتفتيش الدائرة ، وهلم جرا . فإن كان الأستاذ يحرم مايريد تحريمه لأن لبعضه مدلولات لا يسيغها الذوق الحاضر ، فقد أسلفنا أن بعض هذه المدلولات قد تنوسى أصلها ، وأصبحت ألفاظا تستعمل فى المعانى الحاضرة استعمال الحقائق العرفية . والذوق الأدبى العام ، وهو الحكومة الطبيعية فى ذلك — زعيم بنفى مالا يسيغه من هذه التراكيب ، حتى أحس منها نفورا ، ولم يجدها حقيقة بالبقاء والمداولة ، فتموت بمرور الأيام ، كما مات الكثير من

من أمثالها فى شتى العصور .

فليهدأ الأستاذ بالا ، وليطمئن إلى أن الزمان فاعل فعله من الإماتة والبعث، والتغيير والتحويل . أما الأمر باستعمال هذا ، والنهى عن استعمال ذاك ، فما لايجوز فى الأدب إذا كان جائزا فى لغة الشرائع والقوانين .

وإن كان يريد التحريم لأن مدلولات بعضها مسميات لاوجود لها فى بيئتنا، واستعمالها مع ذلك تقليد وإلغاء للشخصية ، فإن اللغة العربية كلها ليست من وضعنا ، واستعمالنا إياها قائم على المحاكاة والتقليد . فما للأستاذ لايدعو إلى تغييرها برمتها ، واتخاذ لغة غيرها من وضعنا ؟ وإذا كنا نعلم أبناءنا أن (الشوفان) من حاصلات الزراعة فى جهة كذا ، و (الرنة) حيوان يعيش فى جهة كذا ، ونفق (سانفوتار) قائم فى جهة كذا ، ونطلب إليهم أن يتحدثوا عنها بالغيب، ولسنا فى هذا بدعا فى خلق الله — فما للأستاذ لايريد أن نعلمهم معنى الثمام ، والضب ، والخزامى ، وموطنها بلاد العرب ، مهد العربية ، ومهبط الوحى ، ومستقر الكعبة ، ومثوى قبر الرسول ﷺ ؟ وهل يعلم الأستاذ مصريا واحدا رأى كل مافى مصر من حيوان ونبات وأزهار وثمار ؟ وما رأيه فى أدب العميان ، الذين يتحدثون عما لا يبصرون ؟

ويشخص الأستاذ علاجا لهذه الحال التى يضيق بها ، وينكر الإبقاء عليها أشد الانكار — أن يذاد الشداة وتلاميذ المدارس الثانوية عن دراسة الشعر الجاهلى ومايشبهه من أشعار العصور الأخرى ، اكتفاء بشعر العصر الحاضر ومايشبهه من أشعار العصور الأخرى كذلك .

وهو علاج عجيب ، بل بالغ فى العجب ، معناه صد جمهور المتعلمين عن دراسة شطر كبير من الشعر العربى ؛ لأن الأدب كما لا يخفى — لايدرس بعد مرحلة التعليم الثانوى إلا للقليل جدا من الطلاب . ومعناه كذلك أن يصبح الشعر العربى بعضه حلال وبعضه حرام ، وليس الحلال حلالا لمزية فيه سوى أنه ليس بجاهلى ولا يشبه الجاهلى ، وليس الحرام حراما لمنقصة فيه سوى أنه

جاهلى أو كالجاهلى ، وذلك مقياس جائر ، ماأنزل الله به من سلطان .

وماندرى ماذا عسى أن يصنع الأستاذ بالذين يخالفون عن أمره، مكابرة وعنادا ، أو تولعا بالمحظور ، أوحبا فى الاطلاع ؟ أتراه يتوسل إلى أولى الأمر أن يضعوا قانونا يحرم دراسة الشعر الجاهلى على غير أهله ، ويرصدوا الجزاء للعصاة المخالفين ، والدعاة المحرضين ؟ وهل تراه يعتقد أن هذا العلاج يؤتى النتيجة التى يرتجيها ؟ كيف وهو يقرر أن الشعر العربى فى جميع عصوره مطبوع بطابع الشعر الجاهلى ، متأثر به تأثرا شديدا ؟ والنهضة الأدبية الحاضرة نفسها إنما قامت على ساقين من الأدب القديم . فليس بواجد إذا شيئا من الشعر على الصورة التى يريدها ، نقيا خالصا من شوائب الشعر الجاهلى .

الحق أن ليس هناك جناية جناها الشعر الجاهلى على الأدب العربى ، لكن هناك فضلا يراد غمطه ، وأثرا محمودا يراد طمسه ، هناك دعاية ظالمة . بل نزوة غالبة ، لها على بعض كتابنا سلطان قاهر ، ولهم بها ولوع شديد . وهى التى تغريهم بالنيل من ماضينا والازراء بحاضرنا ، والإعجاب بكل أجنبى عنا ، وتصويره للناس أمثلة عليا يجب احتذاؤها ، والجد فى بلوغ شأوها ، كأننا من دون الناس أمة مضيعة : ليس لها قديم تستند إليه ، ولا جديد تعتز به .

وإذا قيل لهم : بعض هذا ؛ فليس ضرره مقصورا على مقوماتنا ، ولكنه يمتد إلى النفوس ، فيوهن من الثقة بها ، ويصرف عن الاعتماد عليها ، إذا قيل لهم ذلك قالوا : جامدون . عيونهم فى أقفيتهم ، ينظرون إلى ماوراءهم ، ولا يرون شيئا مما بين أيديهم . وتالله لأن يكون الناس حيال قديمهم كما يتخيل هؤلاء الدعاة خير ألف مرة من أن تكون عيونهم فى أصداغهم ، لا ينظرون بها إلى ماخلفهم ولا إلى ما أمامهم وإنما ينظرون إلى ماعند غيرهم ، تحرفا عن الجادة ، وانقيادا لنوازع التقليد ، وتهالكا مع الشخصية المتداعية : لاتماسك تخاذلا وانحلالا . ولو شاء الله مافعلوه .

على النجدى ناصف
مفتش المعارف بالأسكندرية

الخـــــــــلال

للأستاذ محمد أحمد برانق
المدرس بالابراهيمية الثانوية

فى كتب اللغة : هو وزير الملك : الذى يوازره أعباء الملك ، أى يحامله ، وليس من المؤازرة بمعنى المعاونة. ووزر فلان للأمير يزرله وزارة ، واستوزر استيزارا . واستوزره الأمير ، فتوزر له ، ووازره ، وحاله الوزارة بالكسر ويفتح . والجمع : أوزار ووزراء .

ولقب وزير بهذه المعنى ، مستحدث فى الملة الإسلامية ، وإن كان قديما فى اللغة . فإن ملوك العرب فى اليمن والشام والحيرة كانوا يسمون من يوازرهم أعباء الملك « الراهن » ؛ لأنه مرتهن بالتدبير . « والزعيم » لأنه زعيم بصواب الرأى. « والكافى » ؛ لأنه كاف للملك مهمات الأمور . « والكامل »، لأن المفروض فيه أنه كامل الفضائل .

والملوك لايستغنون عن الوزراء : إذا أرادوا الخير لرعيتهم ، فإنه « كما يحتاج أشجع الناس إلى السلاح ، وأفره الخيل إلى السوط ، وأحد الشفار إلى المسن كذلك يحتاج أجل الملوك وأعظمهم وأعلمهم إلى الوزير »(١) . وفى كتاب كليلة ودمنة « لا يصلح السلطان إلا بالوزراء والأعوان » .

***

وملوك بنى أمية كان يعاونهم كبار الكتاب فى عهدهم ، ولم يسموهم وزراء ؛

(١) المستطرف ج ١ ص ٧٦ .

أنفة منهم، لأن الخليفة عظيم، فهو أعلى وأجل من أن يحتاج إلى الموازرة أو يحمل عنه أعباء الملك، أو هو لا يعترف بها رسميا على الأقل فلا يخاطب كبير كتابه بالوزير. وإن كان القرآن نزل فيه على لسان موسى عليه السلام: « واجعل لى وزيرا من أهلى: هرون أخى، اشدد به أزرى، وأشركه فى أمرى ».

فلما كانت دولة بنى العباس التى قام ملكها على سواعد الناابهين من الأعاجم لم ير خلفاؤها بأسا من أن يسموا كاتبهم وزيرا، ولذلك لم يعرف هذا اللقب قبل العباسيين، وأول من أذن به أبو العباس السفاح، أول خلفائهم.

وأول من لقب به أبو سلمة حفص بن سليمان الخلال، وجرى على ذلك الخلفاء من بعده، ولم يكن « الخلفاء والملوك تستوزر إلا الكامل من كتابها، والأمين العفيف من خاصتها، والناصح الصدوق من رجالها، ومن تأمنه على أسرارها وأموالها، وتثق بحزمه، وفضل رأيه، وصحة تدبيره فى أمورها »[1] هذا كلام المسعودى فى الصفات التى كان الخليفة يتوخاها فى اختيار وزيره، وإن من يتصف بها يكون حقيقا بأن يوازر الملك أعباء الملك، ولكن تعرفها يكون مبنيا على اجتهاد الخليفة فى معرفة حاشيته وبطانته، وقد يصدقه فى ذلك اجتهاده، فيغنيه وزيره ويسعده، وقد لا يصدق اجتهاده، فيكون الوزير المختار سببا فى قلقه وتعبه، وإفساد رعيته عليه. « ومثل الملك الخير، والوزير السوء الذى يمنع الناس خيره، ولا يمكنهم من الدنو منه — كالماء الصافى فيه التمساح، فلا يستطيع المرء دخوله وإن كان سابحا وإلى الماء محتاجا »[2].

ولأن الوزير كان قبل بنى العباس يسمى الكاتب، فإن أكثر الذين ألفوا عن الوزراء من المتقدمين، كانوا يؤلفون أيضا عن الكتاب. وممن ألفوا عن

(١) التنبيه والاشراف ص ٢٩٤ .
(٢) المستطرف ج ١ .

الوزراء ، أو الوزراء والكتاب جميعا إلى عهد المسعودى : أبو عبد الله محمد ابن داود بن الجراج ، وأبو العباس أحمد بن عبيد الله بن محمد بن عمار ، وأبو عبد الله محمد بن عبدوس الجهشيارى وابن الماشطة الكاتب ، وأبو بكر محمد ابن يحي الصولى الجليس ، وعلى بن الفتح المعروف بالمطوق(١).

والذى اطلعنا عليه من مؤلفات هؤلاء لم يزد على أنه جمع أخبارا معنعنة غالبا ، وتكاد تكون خالية من الترتيب والتبويب والتسلسل والنقد والتحليل ، شأن مؤلفات المؤلفين فى العلوم والفنون المختلفة فى تلك العهود .

٭٭٭

وهم جميعا متفقون على أن أبا سلمة الخلال أول من خلع عليه هذا اللقب فى الدول الاسلامية .

وليس يعنينا أن يكون تلقيبه بالخلال نسبة إلى الخل ، أو أن يكون منسوبا إلى خلل السيوف ، يعنى جفوتها لأن العرب تسمى من يعملها الخلال . ولكن الذى يعنينا أنه مولى حارثى، فهو ليس عربيا ، وإنما هو أعجمى، صاهر بكر بن ماهان كاتب إبراهيم الامام . فلما حضرت الوفاة بكرا كتب إلى إبراهيم يخبره أنه استخلف حفص بن سليمان الخلال فى الكتابة ،ويوصيه به خيرا ، وكان ذلك مبدأ اتصال الخلال بإبراهيم الامام ، ولعله أيضا أول اتصال له بشئون السياسة الاسلامية فى خراسان التى ذهب اليها فقبل القوم أمره ودفعوا إليه شيئا من أموالهم .

ظل الخلال كاتبا لإبراهيم الإمام حتى ظفر مروان بإبراهيم وقتله ، وإذ ذاك ظهرت نية أبى سلمة ، وكان هواه فى الشيعة . فلقى رجالا من شيعة على ، وناظرهم على نقل الأمر إلى ولد على ، وأراد أن يعقد الأمر لواحد من ثلاثة هم : جعفر بن محمد ، وعبد الله بن حسن ، وعمر بن على بن الحسين ، وكتب

(١) ص ٢٩٨ من التنبيه والاشراف .

إليهم كتبا ، وبعث إليهم رسولا يحمل هذه الكتب ، وأمره أن يذهب أول مايذهب إلى جعفر ، فإن قبل أن يحمل أمانة الخلافة ، مزق كتابى عبدالله وعمر ، ورجع إليه برد جعفر . وإن لم يقبل ذهب إلى عبدالله ، فإن قبل رجع إليه برده ، ومزق كتاب عمر ، وإن لم يقبل عرض الأمر على عمر ، ثم وافاه برده .

فأما جعفر ، فإنه أخذ كتاب أبى سلمة ، وأحرقه بلسان السراج قبل أن يقرأه ، وقال لرسوله : الجواب مارأيت ، وتمثل ببيت الكميت بن زيد :

أيا موقدا نارا لغيرك ضوءها ويا حاطبا فى حبل غيرك تحطب

وأما عبدالله فإنه قبل مادعاه إليه أبوسلمة ، فحذره جعفر عاقبة القبول ، وأخبره أن أهل خراسان ليسوا بشيعة ، وأن أبا سلمة مخدوع فيهم ، مغرور بما يراه من ظاهرهم ، وأشار عليه ألا يقبل ، فنازعه عبدالله الكلام حتى اجترأ على جعفر ، وهو أسن منه ، وقال له : والله مايمنعك من ذلك إلا الحسد ؛ فرد عليه جعفر ، والله ماهو إلا نصح منى لك ، ولقد كتب إلى أبوسلمة بمثل ما كتب به إليك ، فلم يجد رسوله عندى ماوجد عندك ، ولقد أحرقت كتابه من قبل أن أقرأه .

٭٭٭

وضع أبو سلمة بتصرفه هذا نفسه فى مأزق حرج ، فلا هو عباسى كما كان مع إبراهيم الإمام ، ولاهو وجد من الشيعة من ينصره ويأخذ بيده ، ولم يكن بعيد النظر ، فإنه كان فى أهل خراسان ، وأهل خراسان لم يكن هوى جمهرتهم مع الشيعة ، فليسوا ناصريه جميعا إذا جهر بالدعوة العلوية ، ولاسيما أن أمر بنى العباس كان يزداد قوة يوما بعد يوم ، وكان أتباعهم يطاردون مروان بن محمد ، وكانت انتصاراتهم تتوالى ، وهزائم مروان تتتابع .

٭٭٭

علم إبراهيم الامام أن لانجاة له من مروان ، فكتب إلى أخيه أبى العباس

يوصيه : « بالقيام بالدولة ، والجد والحركة ، وألا يـكون له بعده بالحميمه لبث ولا عرجة حتى يتوجه إلى الـكوفة ، فإن هذا الأمر صائر إليه لا محالة » . وأنفذ إليه الوصية مع أحد مواليه ، وأمره إن حدث به حدث من مروان فى ليل أو نهار ، أن يركب أسرع سابق فى السير ليبلغ أبا العباس وصيته .

ويبدو لى أنه من أسباب نجاح الدعوة العباسية تبكير مروان بن محمد بالقضاء على إبراهيم الإمام ، فإنه نبه إلى ذلك أذهان القوم ، وحفزت وصيته هممهم ، وإنه بعد أن نفذت وصية إبراهيم إلى أبى العباس ، ونُـعِى إليه بالحميمة — أمر أبو العباس الرسول أن يستر الوصية ، وأن ينعى إبراهيم الإمام أخاه ، ثم قام أبو العباس ، وكاشف أخاه أبا جعفر المنصور بالأمر كما كاشف غيره من أهل بيته ، ودعاهم إلى موازرته ، وتوجه بهم مسرعا إلى الكوفة ، وكان ينشر الدعوة لهم هناك أبو مسلم الخرسانى .

وبينما كان أبو العباس سائرا فى طريقه إلى الـكوفة قابله عمه داود بن على ، وسأله عن مسيره ، فأخبره الخبر ، فقال داود : يا أبا العباس — تثبت بالـكوفة !! فمروان شيخ بنى أمية وزعيمهم فى أهل الشام والجزيرة ، يطل على أهل العراق ، وابن هبيرة شيخ العرب ، وحلبة العرب بالعراق ، ولـكن أبا العباس لم يأبه بقول عمه ، ولم ينثن عن عزمه ، وقال له: ياعماه — من أحب الحياة ذل ، وتمثل بقول الأعشى :

فما ميتة إن متها غير عاجز بعار إذا ما غالت النفس غولها

فتأثر دواد من كلام أبى العباس ، والتفت إلى ابنه ، وكان يصحبه ، وقال له : أى بنى ، صدق عمك ، ارجع بنا معه ، نحى أعزاء ، أو نمت كراما ، ثم عطفا ركابهما معه .

خرج إذن أبو العباس إلى الـكوفة ، وخرج معه إخوته وأعمامه وبنو

(١) مروج الذهب ج ٣ ص ١٨١ .

أعمامه، لموازرته، وفعلوا ذلك تنفيذالوصية إبراهيم الإمام أخيه الذى حذرهم المقام بالحميمة، وأمرهم بالمسير إلى أبى سلمة بالكوفة، وأمر أهل بيته أن يسمعوا لخليفته الذى أوصى له ويطيعوا، وكان أبو سلمة على غير علم بهذا الأمر، فهو لا يعلم أن إبراهيم أوصى لأخيه العباس بالخلافة من بعده، ولا يعلم أن أهل بيت العباس يظاهرون السفاح فى السعى إلى الخلافة، ولا يعلم أنهم مزمعون بالخروج من الحميمة إلى الكوفة.

ولعله كان إذا علم أن القوم قادمون إليه، وأن إبراهيم نصب أبا العباس خليفة من بعده، وأن أمرهم آخذ فى الظهور بمعاونة أبى مسلم، لعله كان إذا علم ذلك كله يغير سياسته فى إظهار تشيعه، أو يغير سياسته مع أبى العباس وظهيره أبى مسلم وأعوانه من أهل بيته؛ ولذلك عند ما شارف القوم الكوفة، وعلم أبو سلمة بمقدمهم أنكر عليهم قدومهم فى وقت رآه غير مناسب، وعلى غير علم منه، وقال: خاطروا بأنفسهم، وعجلوا، فليقيموا بقصر مقاتل «وهو على مرحلتين من الكوفة» حتى ننظر فى أمرنا.

نعلم مقام أبى سلمة ومركزه السياسى فى خراسان من أن العباسيين قدموا إليه لينصرهم، ومن أنه استطاع أن يظهر غضبه منهم، وسخطه عليهم، ومن أنه أمر بحبسهم فى دار نائية عن الكوفة حتى ينظر؛ وأراد بذلك أن يؤخر دخولهم الكوفة حتى يعود إليه الرسول الذى أرسله إلى العلويين الثلاثة، يطلب إلى أحد منهم أن يقبل الخلافة، حتى إذا ظفر بذلك شغب على العباسيين، وهم فى تلك الدار النائية فى البرية، فسجنهم أو قتلهم، أو ردهم مقهورين إلى الحميمة حيث أتوا؛ ولكنهم استوحشوا من المقام فى تلك الدار، وكتبوا إليه يلتمسون منه أن يأذن لهم بدخول الكوفة، لأنهم إن بقوا فى ذلك المكان لم يأمنوا على أنفسهم أن تغير عليهم جيوش الشام، فتنال منهم، وهم إذا دخلوها يتحرزون بها. فأذن لهم على كره منه، ولكنه أنزلهم فى دار مولى من موالى

بنى هاشم ، وكتم أمرهم نحوا من شهرين ، فلا القواد يعلمون ، ولا الشيعة يعلمون ، وولى هو الأمر « وفرق عماله على السهل والجبل ، وصارت الدواوين بحضرته ، والكتب تنفذ منه ، وترد عليه ».(١)

وكانت فترة توليه الأمر فترة انتظار لما بعدها لم تطل أكثر من شهر ، سئم أكثر الخراسانيين فيها أبا سلمة ، وبرموا به ، وارتابوا فى أمره ، وتحدثوا فى شأنه ، وقالوا : ياأبا سلمة . مالك خرجنا ، ولا إليك دعونا ، وماأنت لنا إمام، وبينما هم فى ذلك معه ، إذ خرج أبو حميد الطوسى من العسكر إلى الكوفة ، فلقى سابقا أحد موالى إبراهيم الإمام ، فسأله عن مولده ، فقص عليه قصته ، وأخبره أن مروان بن محمد قتله فى الحبس، وكان قد أوصى بالخلافة لأخيه أبى العباس، وهو الآن بالكوفة هو وجماعة من عمومته وأهل بيته منذ شهرين .

عجب أبو حميد الطوسى من ذلك ، وسأل عن الدار التى يقيمون فيها ، وضرب موعدا بينه وبين صاحبه ، على أن يلقاه فى غد ليوصله إليهم ؛ فأما أبو حميد فإنه أخبر جماعة من قواد خراسان فى عساكر أبى سلمة بالأمر ، وأما صاحبه ، فإنه استأذن أبا العباس فى أن يحمل إليه أباحميد ، فأذن له ، فلما كان الموعد المضروب من اليوم التالى تلاقى الرجلان ، ومضيا حتى دخلا على أبى العباس فى محبسه هو وأهل بيته ، ثم سأل أبو حميد : أيكم ابن الحارثية ؟ فأشاروا عليه ، فسلم عليه بالخلافة ، وقبل يديه ورجليه ، وبايعه ، ثم سار إليه جماعة من وجوه العسكر فى أصحابهم ، يحملون سلاحهم وبايعوه(٢) .

كان أبو سلمة إذ ذاك مشغولا بأمره ، وبأمر شغب عسكر خراسان عليه، ومنتظرا أوبة رسوله من حضرة العلويين، فخرج أبو العباس وأهل بيته من الدار التى حبسوا فيها نحوا من شهرين ومعهم بعض وجوه العسكر الخراسانى ، ونزلوا بأحسن زى ، وركبوا الخيول ، وأتوا قصر الامارة ، فلما علم أبو سلمة بذلك،

(١) الجهشياوى ص ٥٧ .
(٢) النجوم الزاهرة ج ١ .

وجد نفسه أمام الأمر الواقع ، وأنه لا بد له من حسن السياسة حتى يسلم من تلك الغمرة ، وحتى لا تنجلى عن غضب العباسيين عليه ، فسار إلى دار الامارة فى جماعة من أصحابه ، فأغلق الباب دونه ، « فاستفتح أصحاب أبى سلمة الباب ، وقالوا : وزير آل محمد ، فأسمعوه بعض ما يكره ، فقال أبو حميد : افتحوا له ، حتى يريه الله ما يرغم أنفه ، فدخل . فاستقبل القبلة ، ثم سلم ، وقبل يد أبى العباس وقدميه ، وبدأ فى الاعتذار . فقال له أبو العباس : عذرناك يا أبا سلمة غير مفند ، وحقك لدينا معظم ، وسابقتك فى دولتنا مشكورة وزلتك مغفورة ، انصرف إلى معسكرك لا يدخله خالٍ »[1].

وبالرغم من أن السفاح دخل فى نفسه شىء من أبى سلمة ، لأنه كان يحاول رد الأمر عنهم إلى غيرهم ، فإن حسن السياسة وحزم التدبير ، جعله يتغاضى عن سيئات أبى سلمة ، مع أنه لم ينس أنه يقيم ملكا ويهدم ملكا ، ولم ينس أنه قضى على بنى أمية وهم قوم لهم فى العرب عصبية ، ولهم فى ولاية أمر المسلمين زهاء تسعين عاما ، ولم ينس أنه وثب إلى خلافة طالما منى العلويون أنفسهم بها ، وطالما سعوا إليها ، ولم ينس أن بعضا من أهل بيته كانوا يريدون أن يلوا أمر المسلمين من دونه ، ولم يسكتوا إلا احتراما لبيعة إبراهيم الامام ، وتهيبا من الدخول فى أمر لا يعرفون عاقبته ، ولأنهم كانوا فى قلة من النصراء والأعوان ولم ينس أن أبا سلمة كان له نصراء وأعوان يغضبون له ، وقد يثورون من أجله — لم ينس أبو العباس السفاح كل هذا ؛ ولذلك كان رده على أبى مسلم الخراسانى عند ما كتب إليه يشير عليه بقتله ، ويقول له : قد أحل الله لك دمه لأنه قد نكث وغير وبدل — كان رده : « ما كنت لأفتتح دولتى بقتل رجل من شيعتى ، لاسيما مثل أبى سلمة ، وهو صاحب هذه الدعوة ، وقد عرض نفسه وبذل مهجته ، وأنفق ماله ، وناصح إمامه ، وجاهد عدوه » . فهو لا يفتتح دولته بقتل أبى سلمة ، ثم يكتب فيه ما يكتبه فى أحسن المخلصين له ، وإن كان يجد

(١) الجهشيارى ص ٢٨ .

فى نفسه عليه ، ولعله يريد بذلك أن يعرف أبا مسلم الخراسانى أنه ليس من شأنه أن ينتقم ممن أخلص له إذا أخطأ ، ثم رجع عن خطئه فتاب وأناب ،حتى لاتتملكه رهبة الملك ، وخشية السلطان ، فيخلص ظاهره ولا يخلص باطنه ؛ إلا أن أبا مسلم كان يريد أن يتخلص من أبى سلمة ، لأنه يزحمه فى مكانه ، ويحد من سلطانه ؛ فلما رد عليه السفاح ذلك الرد ، الذى يرفض فيه أن ينفذ ما أشار عليه به ، وهو قتله والتخلص منه لخيانته وانحيازه إلى جانب الطالبيين ؛ لم يقطع أمله ، وسعى سعيه عند أخ للسفاح هو أبو جعده ، وعم له هو داود ابن على ، فكتب إليهما يسألها أن يشيرا على السفاح بقتله ، فقال السفاح : « ما كنت لأفسد كثير إحسانه ، وعظيم بلائه ، وصالح أيامه ؛ بزلة كانت منه وهى خطرة من خطرات الشيطان ، وغفلة من غفلات الانسان » ، وبذلك لم يبلغا منه مايريد ان ومايريده منهما أبو مسلم الخراسانى ؛ ولعل أبا مسلم كان قد استطاع أن يقنع أبا جعدة ، وداود بن على بوجوب التخلص من أبى سلمة. ولكنهما حينما لم يفلحا فى إقناع السفاح بوجوب التخلص منه ، نصحا له بأنه ينبغى له أن يحترس منه لأنهما لايأمنانه عليه ، لأن له سابقة غدر وخيانة ، ومع ذلك فإن أبا مسلم لم يتزحزح عن رأيه وقال لهما : « إنى لآمنه فى ليلى ونهارى ، وسرى وجهرى ، ووحدى وجماعتى [1] » .

ولكن الذى تفهمه من الجهشيارى أن السفاح هو الذى هم بأبى سلمة فقال له عمه داود بن على : « لا آمن عليك أبا مسلم إن فعلت أن يستوحش، ولكن اكتب إليه ، فعرفه ما كان من أبى سلمة ، فكتب أبو العباس إلى أبى مسلم ، يعلمه ماكان من أمر أبى سلمة فى الكتاب إلى من كتب إليه من ولد على وما كان أجمعه من صرف الدعوة إليهم ، فوجه أبو مسلم بالمرار بن أنس الضبى، لقتل أبى سلمة » . وهذا لا يتنافى مع ما قدمنا ، فإنه طبيعى أن يغضب السفاح من أبى سلمة أول الأمر ، ولاسيما أنه حبسه هو وأهل بيته شهرين بالكوفة ،

(١) مروج الذهب ج ٣ .

يكتم الناس أمرهم منتظرا رد من كتب إليهم من الطالبيين ؛ ولولا أن الله قيض له من علم أمره من العسكر الحانقين على أبى سلمة لخرج الأمر من يد السفاح إلى يد الطالبيين ، ولولا أنه كان يخشى غضب الأعاجم الذين عاونوه على الوثوب إلى الخلافة لقتل أبا سلمة أول مالقيه ليبايعه،ولاسيما أنه كان يعلم أن له شيعة تغضب له ، وقد تثور إذا أمكنتها الفرصة؛ولعل أبامسلم الخراسانى كتب إلى السفاح يشير عليه بقتل أبى سلمة بعد أن كتب إليه السفاح يخبره فيه خبر خيانته ، وخروجه عليه ولعل تحذير داود بن على عم السفاح قتل أبى سلمة كانت قبل موافقه أبى مسلم على قتله وإلحاحه فى ذلك .

فلما هدأت الأحوال ، واستقر الأمر فى يد السفاح ، وانحاز إليه أبو مسلم فى شأن أبى سلمة أعلن رأيه للناس فى أبى سلمة ليطمئنه ويطمئن أشياعه ودعاه ليسمر عنده مع السامرين ، وأرسل مناديا ينادى فى الكوفة أن أمير المؤمنين قد رضى عن أبى سلمة ، ثم دعاه وخلع عليه .

ويظهر أن ما كان يتصف به أبو سلمة من حميد الصفات ، وما كان عليه من فصاحة اللسان ، والعلم بالأخبار والأشعار والجدل وتفسير القرآن ، وما كان عليه من حضور الحجة ، وكثرة الجد ، وكثرة العطاء والبذل ، والتأنق فى السلاح والدواب — يظهر أن ذلك كله مضافا إليه ماتستلزمه الحنكة السياسية والدربة على تدبير الأمور — جعل السفاح يقرب أبا سلمة إليه . ويجلسه فى مجالسه ، ويفسح له فى أوقات السمر ، إيهاما لهم برضاه عنه .

ظن أبو مسلم أن الخليفة رضى من قلبه عن أبى سلمة ، وأنه لا يبيت له شيئا فى نفسه ، وأن ما أعلنه للناس عن رضاه عنه صحيح ، فأكبر ذلك الخلق فى الخليفة بالرغم من أنه هو الذى كان يحاول أن يدفعه إلى قتل أبى سلمة .

وهنا يختلف المؤرخون فيمن أمر بقتل أبى سلمة ، فإن الخليفة رضى عنه ظاهرا ، وأنس به ، ودعاه يسمر عنده ، لأنه كان فكها ممتعا أديبا عالما بالسياسة

والتدبير كما قدمنا ، ومع ذلك يقول بعضهم : إنه هو الذى دس عليه من قتله بعد أن سمر عنده ليلة ، وخرج يريد الانصراف إلى منزله ، فكمن له كمين وقتله ، فلما علم بذلك السفاح قال : لليدين وللفم . ويرى آخرون أن أبا مسلم الخراسانى خاف من ناحية أبى سلمة أن يقصده بالمكروه ، فوجه جماعة من ثقات أصحابه فى أعمال الحيلة فى قتل أبى سلمة ، فلما انصرف ليلة من عند السفاح ، وليس معه أحد ، وثب عليه أصحاب أبى مسلم وقتلوه . فلما علم السفاح الخبر ، قال :

إلى النار فليذهب ومن كان مثله على أى شىء فاتنا منه نأسف !!

ومهما يكن من شىء فإن أبا سلمة قتل ، وكان قتله عند منصرفه من مجلس السفاح ، وأن السفاح سره أن يتخلص منه ، وكان قتله فى رجب سنة ١٣٢ هـ أى بعد بيعة السفاح بشهرين وبعض شهر ؟ .

محمد أحمد برانق

نص المحاضرة التى ألقاها

الأستاذ عبد الرازق حميدة

بالنادى مساء يوم الخميس ١٤ يونيو سنة ١٩٣٩

سيدى الرئيس :

أساتذتى الأفاضل وإخوانى الأكرمين .

أشكر لنادينا تلك الفرص السعيدة التى يهيؤها لنا لنتلاقى ويتحدث بعضنا إلى بعض أحاديث لانعرض فيها لأحد بسوء . ولانذكر أحدا بما يكره ، وليست من لهو الحديث الذى يضل الناس بغير علم . وإنما هى أحاديث دائرة حول خدمة الدين ولغة الدين .

ولا أخفى عليكم أنى كنت قد أعددت لحضراتكم شكراً جزيلا على تفضلكم بالحضور لسماع حديث عن الخرافات مضحين بوقتكم . ولكنى نسيت ما أعددت ، وما أنسانيه إلا ظرف أستاذنا الرئيس الكريم وجميل ثنائه على ، حتى أخجل تواضعى . ففوت على فرصة عظيمة أشكر فيها الاخوان حسن تشجيعهم .

على أنى أرجو أن يكون فى حديثى سرور لكم وإمتاع . فقد أعددته غير مسبوق إليه فى لغتنا ، ورجائى أن يوفقنى الله فى عرضه عليكم كما وفقنى فى كتابته . وهو ولى التوفيق .

الخرافات (Fables)

نقصد بهذا العنوان مايسمى بالانجليزية fables وبالفرنسية Fables وهى « قصص أدبية من النثر أو الشعر فيها عنصر التمثيل ، وممثلوها شخصيات غير عاقلة من البهائم أو الطير أو الجماد ؛ تبدو فيهم دائماً طبيعة الانسان ، (ويقصد منها التعليم أو الامتاع واللهو) ، باطن هذه الخرافات الحكمة ، وظاهرها لهو وإمتاع .

ومن الممكن أن نطلق عليها « الخرافات » فقط ، بدلا من الحكايات الخرافية : وقد سماها ابن النديم كذلك فى الفهرست إذ عقد فصلا سماه : « باب الأسمار والخرافات » . ومثل للأول بقصة ألف ليلة وليلة . وللثانى كليلة ودمنة . وكلمة « خرافة » الآن أوسع معنى ، إذ تشمل إلى جانب القصص السابق وصفها ، كل مالا أساس له من العقل أو الدين من عقائد وعادات ؛ ولكن الاستعمال كفيل بتخصيصها بالمعنى الذى شرحته آنفا .

أما كلمة « خرافة » فمأخوذة من اسم شخصية عربية مشكوك فى وجودها ، وصاحبها رجل اسمه خرافة . يقال إن الشياطين استهوته فى الأرض وغاب عن قومه زمانا ثم عاد إليهم وحدثهم أحاديث بعيدة عن المعقول . فكذبوه ثم شبهت بأحاديثه كل الأحاديث التى هى بعيدة الاحتمال . وفى لسان العرب مايؤيد هذه الكلمة ترجمة للكلمة الإنجليزية أو الفرنسية .

أما هذه الحكايات فلها علامات مميزة لها ؛ منها ، أن عالم الحيوان الذى تستمد منه أشخاصها لابد أن يحتفظ بحقيقته وغرائزه فى القصة . ومنها أن يركب صاحب الحكاية فى الأبطال عقولا وألسنة من عقول الناس وألسنتهم لتفهم وتفصح عن أغراضها . ولابد من اشتمال هذه الحكايات على كلا النوعين ثم لابد من أن يكون مغزاها عاما ، ينطبق على كل الأزمان والأمكان .

نشأتها الأولى :

عرف الانسان الأول هذا النوع من الحكايات ، ومن السهل أن نفهم وجودها عنده . فقد كان يعيش عيشة سهلة ساذجة . وكان عقله بسيطا ساذجا ، وكان قريبا من الحيوان فى تفكيره ومعيشته ، وكان يساكنه ويتصل به اتصال نفع أو خوف . فبعض الحيوان يؤدى له خدمات مهمة ضرورية وبعض غرائز الحيوان عجيب مدهش حتى فى عصور الحضارة والمدنية ، فلا غرابة إذن أن يرى الإنسان الأول نوعا من المساواة بينه وبين الحيوانات ، وأن

يرى فيها أنصاف أناسى . وأن يتصور قدرتها على القول والفهم والتمثيل، وأن يصوغ ذلك فى قالب حكايات .

ثم تطور الإنسان . ونما عقله ، وزادت معرفته بالحيوان وغرائزه.والجماد وخواصه . فزاد إكباره لهذه الغرائز والخواص ودهشته منها ، وزادت تجاربه فى الحياة ، ودقت ملاحظته للأخلاق عامة . فبعثه ذلك إلى صوغ تجاربه. وملاحظته فى قالب قصص ممتع هو الحكايات التى على ألسنة البهائم والطير والجماد ، وضمنها الحكمة البالغة ، والرأى الصواب ، والمغزى الخلقى القويم ، وأصبحت لهذه الحكايات على مر الزمن قيمة جدية ، وفائدة عظيمة :

وقد وجد من هذه الحكايات نوع على ألسنة الجماد والزهر يفسر بعض مظاهر الطبيعة . وهو تفسير فلسفى ساذج ، فى الأمم القديمة ، كالفرس واليونان والمصريين ، ولكن هذا داخل فى دائرة الأساطير .

ويلاحظ بوجه عام أن مايختار من عالم الحيوان هوأذكاه كالقردةوالفيلة، أو أنفعه كالثور والحمار ، أو آلفه ، كالقط والكلب ، أو مايمتاز بصفة ظاهرة كالثعلب لمكره ، والنمل لصبره ، والنحل لنظامه ونظافته .

أنواعها :

الحكايات الخرافية بحسب البيئة التى نشأت فيها نوعان : غربية وشرقية أما الغربى منها فقد وجد من عنى بتاريخه كل العناية من علماء الغرب . وأما الشرقى فقد أجهدت نفسى رجاء أن أكشف عن حقيقته وقيمته وأجمل تاريخه فى هذه الصفحات القليلة العدد .

والآن أبدأ بالكلام عن النوع الأول :

(١) الخرافات الغربية :

ليست الخرافات الغربية سابقة فى الوجود على الشرقية . ولا معاصرة لها ، وإنما هى وليدتها ، ومن المؤكد أن الخرافات جاءت إلى اليونان من آسيا

الصغرى ، واشتهر السوريون بأنهم مبتدعوها ، أو ناقلوها من الشرق الأوسط إلى اليونان ، والإغريق الذين استعمروا آسيا الصغرى هم آخر مرحلة انتقلت فيها — القصص التهذيبية الرمزية من الهند إلى بلاد الاغريق .

وقد زاد اليونان على ما نقل إليهم ، ولكن هناك أصلا مشتركا للخرافات الهندية والاغريقية هو الحكم الطبيعية . أو الثروة الموروثة من الروايات والتقاليد أو من الأساطير والمعتقدات التى حملها معه الجنس (الهندى — الآرى) النازح من أواسط آسيا إلى الغرب . وكان منه الاغريق . وقد انتفع هؤلاء بما نقل إليهم . وزادوا فيه . وحولوه بعقولهم الناضجة وخيالهم القدير على الاختراع . وصبغوه بصبغة قومية . ضيعت معالمه الأولى .

وتمتاز الخرافة الغربية بقصرها وسهولتها . وخلوها من الاستطراد .

بعد هذه السطور القليلة أعرض لشخصية عظيمة من واضعى الحكايات هى شخصية Esope إيسوب :

ايسوب

ولا يعرف عنه شىء على وجه التأكيد ، ويقال إنه رقيق يونانى عاش فى ساموس Samos حوالى القرن السادس قبل المسيح . وهو الذى «أقلم» الخرافة اليونانية . وجعلها سهلة طبيعية محبوبة إلى الناس . ويرجع إليه الفضل فى الاختصار والسهولة اللذين عرفت بهما الخرافات فى الغرب بعد ذلك .

واسمه يشبه اسم هومر ، فى أن كلا منهما مبتدع لنوع عظيم من أنواع الأدب الغربى ، فهومر مخترع الملاحم ، وإيسوب مخترع الخرافات ، وقد كثر الكلام حول وجودهما التاريخى فأثبته قوم وأنكره آخرون ، أما هيرودوت فيثبت وجود إيسوب . ولكن وجوده التاريخى لا يؤيد صحة مانسب إليه من الخرافات ، ولا أنه هو كاتبها . فمن الجائز أن يكون قد أنشد بعضها وعرف عنه ثم جمع من بعده مضافا إليه مازاده المقلدون والمنشئون ، وجمع ذلك كله

منسوبا إليه فى مجموعة واحدة .

وبعده بثلاثة قرون ألف رجل اسمه ديمترياس فالير Demetrinus Phalére مجموعة (من الخرافات) جاء بها من الخرافات المصرية ، ولكنها ضمت إلى المجموعة الأولى ونسبت إلى إيسوب .

وجاء من بعده شخص اسمه بابرياص Babrius حوالى خمسين سنة قبل المسيح ، فنظمها شعرا متينا ، وقلده من بعده كثيرون فى اليونان والرومان من أشهرهم دوشياص ماجيستر « Dosiirrpus Maqister » فى عهد هادريان وأفيانوس Avianus فى عصر تيودوس Tneodose .

أما الخرافات اللاتينية فليست إلا تقليدا لليونانية ، وقد نظمها Phedre شعرا ، وهو من الشعراء الذين عاشوا فى زمن أغسطس Auqust ولا يعرف عنه إلا القليل ، وقد جهلته القرون الوسطى ، وأعرضت عن خرافاته حتى كشف عنها فى عصر النهضة ، وكان عددها مائة وسبعا وعشرين حكاية ،

وبعد زوال المجد الرومانى ، اختفت هذه الحكايات ، وحفظت مجموعاتها فى الأديرة « الديورة » وأشهر ماعرف منها هو المجموعة المسماة روميولص Romulus وهى ليست إلا حكايات Phedre منثورة .

فى العصور الوسطى

نهضت فى العصور الوسطى أمم متعددة فى الغرب ، وتجددت الأفكار والمعانى فى تلك الأيام ، وتجددت الحكايات الخرافية كذلك وأخصبت ، واستحدث بعضها وأعيدت كتابة القديم منها ، وعرفت الحكايات الشرقية الخصيبة طريقها إلى أوربا عن طريق عرب إسبانيا والحروب الصليبية . وزيد فى الحكايات المأخوذة من كليلة ودمنة ، ونشأت حكايات جديدة مأخوذة من التجارب ومن عمل الخيال حتى كانت هناك فى هذه العصور أنواع ثلاثة متميزة من الحكايات الخرافية ، أولها من النوع القديم « الكلاسيكى » الذى جاء من اليونان والرومان

وثانيها من الشرق عن طريق العرب فى إسبانيا ، والحروب الصليبية ، والثالث مبتدع ، وامتاز النوع الشرقى فيها بوجود الشخصيات الغريبة ، والحوادث ، والأخلاق ، وقد اختلطت أحيانا بغيرها من النوعين الآخرين فى مجموعة واحدة.

وكثير من خرافات القرون الوسطى لايعرف قائله ، ولا جامعه ، اللهم إلا ماينسب إلى مارى الفرنسية Marie oF France التى عاشت فى انجلترا وبلجيكا حوالى منتصف القرن الثالث عشر فى عصر هنرى الأول الإنجليزى ، وكان للحكايات سوق رائجة فى هذه العصور ، وعرفها الناس على اختلاف درجاتهم مابين منشىء لها ومعيد لما عرف منها ، وكانت محببة إلى الجمهور الأمى ، وكان طريقها إلى القلوب ممهدا .

وفى القرن السادس عشر كسدت سوقها إلا عند المتعلمين . غير أنها لم تلبث أن عادت إلى الحياة فى صورة جديدة ، فذيلها الكتاب بأسمائهم ، وخلت من التعقيد والاستطراد ، وأصبحت قصيرة ، وسميت الحيوانات بأسماء ، أعنى أنها خلت من الأثر الشرقى ، وكان الفضل فى كل ذلك للإيطاليين .

حوالى ذلك الوقت نبذت إسبانيا التعصب جانبا ، وأظهرت تفضيلها للخرافات الشرقية على الوطنية ، وآثرت ماورثته من العرب الذين استعمروها وعمروها مئات السنين .

وقد حدثت فى فرنسا نهضة تشبه نهضة إيطاليا ، واتخذ كتاب الحكايات من سبقوهم مثالا لهم . غير أن الضعف لحقهم فى أوائل القرن السابع عشر ، إذ انصرفت القوى إلى شعر البطولة والسياسة ؛ حتى جاء لافنتين فنهض بالخرافات نهضة قوية .

جين دى لافنتين La Fontaine

ولد فى يوليه سنة ١٦٢١ فى حصن تييرى Chateau Tierry فى بلدة

لاباري La Barie على المارن . وهو أكبر أولاد شارل لافونتين رئيس المياه والغابات فى دوقية تييرى .

وكانت أسرته غنية ، وبيته بيت علم وأدب ، فلا غرابة أن يدرس الآداب القديمة ، وأن يكون له ذوق فى الشعر . وكانت الأرستقراطية تتودد إلى الطبقة الوسطى ، طبقة العلم والأدب فى أيامه ، فساعده ذلك كما ساعد راسين وبوالو وفولتير .

وقد دخل دير سانت ماجلوار Saint Macloire فى العشرين من عمره غير أنه ضاق ذرعا بالحياة هناك ، فعاد إلى الدنيا .

واتصل بفوكيه العظيم ، وزير مالية فرنسا فى عصر لويس الرابع عشر .

وقد ورث محبته للشعر عن والده ، فقرأ كثيرا ، وأحب الريف ، وغذى خياله منه ، وقرأ لشعراء فرنسا وغيرهم من القدامى أمثال هوارس وفرجيل .

وعرف الحكايات الهندية ، وكليلة ودمنة ، وكثيرا غيرها من الحكايات الشرقية ، التى نقلت فى العصور الوسطى ، وعرف المشهور من حكايات أفيانوس وباترياس ، وإيسوب وفدر ، وقرأ ما نسب إلى الطليان والفرنسيين ، وأحب رابليه « Rabelais » ومارو « Maror » وكل كتاب الحكايات فى القرن السادس عشر ، وأضاف إلى ذلك كله قوة إبداعه . وقدرته على نسج الشعر الرصين .

Les Fables des la Fontaine (خرافات لافنتين)

أهم ما تمتاز به على وجه الإجمال: أنها مصوغة فى قالب قصة ، فيها حوار أو حديث بين الأبطال ، وفيها الشخصيات مصورة بدقة ، وفيها المغزى الخلقى ، والانسجام والترتيب فى سرد الحوادث ، وفيها تنويع ، وتجديد ، وقد لبس الشاعر لكل حكاية لبوسها وصور أبطالها من الحيوان أو الطير تصوير عالم بطباعها ، وأبرز المغزى الخلقى أو السياسى أو الدينى أو الفلسفى واضحا فيها ،

ولكل هذه الميزات يكاد يعتبر لافنتين سيد من كتب الحكايات الخرافية فى العصور الحديثة . أوهو سيدهم كما تقول دائرة المعارف البريطانية ، تحت عنوان « Fables ».

وننتقل بعد هذا العرض القصير إلى النوع الثانى الذى يعنينا أكثر من غيره ، وهو :

(٢) الخرافات الشرقية :

قلنا إن الخرافات الشرقية أقدم من الغربية فى الوجود ، وأقدم الخرافات الشرقية هى الخرافات الهندية ، وأقدم مابين أيدينا منها هو المجموعة المسماة (الفصول الخمسة Pantcha tantara «Lecinq Chafptres) ، ويرجع تاريخها إلى القرون المسيحية الأولى ، ولكل فصل منها عنوان مستقل مثل حرب البوم والغربان «La guerre Dcs Cerbeaux et des Hilboux» وشراء الأصحاب « L'aquisition des amis ».

ومؤلف هذه « الفصول الخمسة » — كما فى النسخة السنسكريتية — هو فيشوكارمن « Vishocarman ».

ولكن من أين جاء اسم بيدبا أو بلباى Bidpai أو « Bilpai » الذى تنصرف إليه الأذهان عند مايذكر اسم الخرافات الشرقية ؟

فى القرن السادس ترجمت الفصول الخمسة إلى البهلوية ، وهذه الترجمة غير موجودة الآن . وفى القرن الثامن الميلادى — الثانى الهجرى — ترجمت هذه الفصول إلى العربية تحت عنوان « كليلة ودمنة ».

كليلة ودمنة :

والذى ترجمه هو ابن المقفع من الفهلوية إلى العربية ، وقد سمى الكتاب باسم بطلى القصة الأولى فيه ، وكليلة ودمنة ليسا إلا نوعين من أنواع الثعالب ، وقد تخيل مترجمه أن الكتاب من عمل قسيس هندى اسمه « بيدبا » ، ومعناه

الحكيم أو الفيلسوف — وأنه كان يعيش فى زمن ملك اسمه دبشليم . وكان هذا الملك غاشما ، يظلم الناس ويبغى فى الأرض بغير الحق ، فضاق به ذرع « بيدبا » ورأى من الواجب عليه أن ينصح للملك ، وأن يرده عن ضلالته ، ولكن عاقبته ماتكون ، فكان جزاؤه السجن ، وجزاء أنصاره التشريد . ثم ثاب الملك إلى رشده فدعا بيدبا من سجنه ، واعتذر إليه ، وأمره أن « يضع له كتابا بليغا . . . يكون ظاهره سياسة العامة وتأديبها ، وباطنه أخلاق الملوك وسياستها للرعية على طاعة الملك وخدمته » ، فجمع تلاميذه ، وأخبرهم بأمر الملك واصطفى منهم رجلا ، يملى عليه ويكتب ، « حتى استقر الكتاب على غاية الإتقان والإحكام » ، وسماه « كليلة ودمنة » .

« ثم جعل كلامه على ألسن البهائم والسباع والطير » . « ورتب فيه أربعة عشر بابا ، ثم قدمه إلى الملك فأكرم مثواه وأحسن جزاءه . وضم الكتاب إلى نفائس كتبه .

نقله إلى فارس :

يحدثنا ابن المقفع أن بيدبا كان يخشى على كتابه من الفرس ، ثم يحدثنا بعد ذلك أن كسرى الفرس أنوشروان العادل سمع بهذا الكتاب فأمر وزيره بزرجمهر بن البختكان أن يختار له من يحتال على نقله من خزائن الهند ، فاختار له (برزويه) المتطبب ، فأنفذه إلى بلاد الهند ، فمكث بها عشرين عاما يتعلم الهندية ، ويتخير واحدا من الرجال يأتمنه على سره ، ويستعين به على قضاء حاجته ، حتى وفقه الله إلى أمين الخزانة الملكية فمكنه من الكتاب ، فنقله ليلا ، ثم عاد إلى بلاده ، فعظمت منزلته عند سيده كسرى ، وأراد جزاءه ، فآثر برزويه بقاء اسمه على الأيام ، وطلب أن يجزى على عمله بتدوين سيرته فى صدر الكتاب ، فأمر الملك وزيره بزرجمهر أن يضطلع بهذا الأمر ، وأن يسعف برزويه بحاجته وطلبته ، وأن يكتب بابا مضارعا لتلك الأبواب فى

الكتاب ، ويذكر فيه خبر برزويه تفصيلا ، ففعل .

وقد اتفق على نسبة هذا الكتاب إلى الهند كل كتاب الغرب تقريبا ، فالأستاذ براون يقول فى الجزء الثانى من كتابه تاريخ الفرس :

« أما أصلها — أصل الترجمة العربية — فهو هندى ، ونقلت إلى فارس فى القرن السادس للميلاد ، فى عهد كسرى أنوشروان ، وترجمت إلى اللغة الفهلوية ، ومنها إلى السريانية والعربية ، ومن العربية إلى لغات كثيرة شرقية وغربية » .

ويقول الأستاذ « نيكلسن Nickelson » فى كتابه تاريخ الأدب العربى « أما ابن المقفع فقد ترجم كتابه من الفهلوية ، وأصل الكتاب فى السنسكريتية ومعناه « خرافات بيدبا ») .

وكذلك كتاب الشرق ، اللهم الا ابن النديم فيما نقله عن محمد بن اسحاق صفحة ٣٠٣ (تحت عنوان باب الأسمار والخرافات) إذ يقول : « قال محمد بن إسحاق : « وكان قبل ذلك — قبل الجشهيارى الذى حاول جمع ألف سمر وخرافة وجمع منها ٤٨٠ ليلة ، كل ليلة سمر تحتوى على خمسين ورقة أو أقل أو أكثر ممن يعمل الأسمار والخرافات على ألسنة الناس والطير والبهائم — جماعة ، منهم عبد الله بن المقفع ، وسهل بن هرون ، وعلى بن داود كاتب زبيدة وغيرهم » وقد استقصينا أخبار هؤلاء وماصنفوه فى مواضعه من الكتاب ، فأما كتاب كليلة ودمنة فقد اختلف فى أمره فقيل عملته الهند ، وخبر ذلك فى صدر الكتاب — كليلة ودمنة — وقيل: عملته ملوك الاسكانية ونحلته الهند ، وقيل: عملته الفرس ونحلته الهند ، وقيل: إن الذى عمله بزرجمهر الحكيم اجزاء ، والله أعلم بذلك .

ويقول ابن اسحق فى المصدر نفسه « أول من صنف فى الخرافات وجعل لها كتبا وأودعها الخزائن ، وجعل ذلك على ألسنة الحيوان الفرس الأول ،

ثم أغرق فى ذلك ملوك الأشغانية ، وهم الطبقة الثالثة من ملوك الفرس. تم ذلك واتسع فى أيام ملوك الساسانية ونقلته العرب إلى اللغة العربية ، وتناوله الفصحاء والبلغاء ، فهذبوه ونمقوه ، وصنفوا فى معناه مايشبهه » .

أما الكتاب نفسه فله قيمة إنشائية سامية ، وهو مثل صادق تتجلى فيه صفات الخرافات الشرقية من الطول ، والاستطراد ، واستمداد المغزى الخلقى من التجارب العملية ، لامن التفكير الفلسفى . فباب الأسد والثور وهو أول باب فى الكتاب ، يبدأ بالصحيفة الحادية والتسعين ، وينتهى فى الرابعة والخمسين بعد المائة .

والاستطراد ظاهر جدا فى كل القصص . خذ لذلك مثلا ، « باب الحمامة المطوقة » . ساق الفيلسوف قصتها حديثا عن إخوان الصفاء ، كيف يبتدىء تواصلهم ويستمتع بعضهم ببعض :

كانت الحمامة مقيمة بأرض سكاوندجين ، ومعها غراب وجرذ ، ومر الصياد ذات يوم ونصب شبكته ، فوقعت فيها المطوقة مع كثيرات غيرها من بنات جنسها ، فأشارت عليهن ، فجمعن أمرهن وطرن بالشبكة ، والصياد من ورائهن حتى يئس فرجع ، أما المطوقة وصاحباتها فقد سرن حتى أتين إلى مسكن الجرذ فسقطن ، وكان له مائة جحر للمخاوف ، فنادته باسمه فخرج ، ثم ابتدأ يسألها عن سبب هذه الورطة فأمرته أن يقرض الشبكة أولا ثم يسأل ، فأراد أن يقرض العين التى هى فيها ، فأبت عليه ذلك ، حتى ينقذ صاحباتها أولا ، وذلك لئلا يدركه الكلال قبل إنقاذها .

كان الغراب قد تبع الحمائم فى سيرهن إلى الجرذ ، فلما رأى نفعه ومعونته فى الشدائد ، رغب فى مصادقته فأبى عليه الجرذ . قائلا : ليس بينى وبينك تواصل ، غير أنه لان أخيرا وقبل صداقة الغراب ؛ وحمله هذا بعد مدة إلى صديقة له من السلاحف ، فلما جاءا قص الفأر عليها قصته ، وسبب بلائه ونكبته

فى طلب المال ، ثم أنس كل منهما إلى صاحبه ، وانضم اليهم ظبى نافر فأكرموا لقاءه ، وأمنوه ، وصاحبهم ، ثم غاب يوما ، فأرسلوا الغراب يستطلع خبره فوجده فى حبائل صياد ، فعاد وأخبر الجرذ والسلحفاة فذهبا لإنجائه ، فما كاد الجرذ ينتهى من قطع الحبالة حتى جاء القانص ، ففر الظبى ، واختفى الفأر ، وطار الغراب ، ووقعت السلحفاة فى يد القانص فربطها ، فاحتال الفأروالغراب والظبى حتى نجوها بحيلة لطيفة .

وقد ختمت القصة بحث الناس على الاقتداء بهذا الحيوان الأعجم ، أما لغتها فهى عالية ، وأمثالها كثيرة ، ومواعظها متمشية مع قصصها الاستطرادية ومغازيها عادية كالتعاون ، والإيثار ، والحذر ممن لايشاكل ، وفائدة الصداقة عند الشدائد ، ومايجلبه حب المال على صاحبه من ويلات .

أما أبواب الكتاب الآن فهى خمسة عشر ، وكلها تسير على هذا النحو من الطول والاستطراد ووجود الموعظة فى ثنايا القصة صريحة .

هذه خلاصة للكتاب ، أصله وترجمته ، وعلاماته المميزة له وللخرافة الشرقية بوجه عام ، وقد ترجم إلى كثير من لغات العالم حديثها وقديمها ، فترجم إلى الفارسية مرة ثانية ، فى عهد الدولة الغزنوية وقد نظمها فى الفارسية شاعر اسمه روداجى « Rudagi » فى عهد الدولة السامانية .

وقد قفى على أثر ابن المقفع كثير من رجال الأدب فى الشرق والغرب ، فهذا سهل بن هرون أمين خزانة الحكمة عند المأمون ، قد كتب على نظامها كتابا سماه « ثعلة وعفراء » وقدكان شعوبيا فارسيا ، وهو صاحب رسالة « البخل » المشهورة التى كتبها لبعض أقاربه ، وقدمها إلى الحسن بن سهل ؛ فجازاه عليها بقبولها ، ولم يصله [1] وأبان بن عبد الحميد اللاحقى قد نظمها شعرا ، وهناك كتاب الصادح والباغم لابن الهبارية ، ومجموعات أخرى قليلة

(١) معجم الأدباء صفحة ٢٦١ من الجزء ١١

لغيرهم من الأدباء.

وأما لقمان الحكيم الذى تنسب إليه بعض الخرافات العربية ، مثل ما يُنسب بعض آخر منها إلى الفيلسوف بيدبا ، فهو فى نظر مؤرخى الآداب الغربية خيالى مثل بيدبا ، وقد كادوا يجمعون على أنه هو المعروف عندهم باسم «إيسوب» الإغريقى ، للتشابه العظيم بين الخرافات المنسوبة إلى كليهما .

وأما وجهة نظرنا نحن المسلمين فهى أن لقمان شخص تاريخى ، آتاه الله الحكمة ، ويقول ابن جرير الطبرى فى تفسيره : « قال قتادة لم يوح إليه ولم يكن نبيا ، وعن مجاهد أنه كان صالحا ، ولم يكن نبيا ، وعنه ، أنه كان عبدا حبشيا مصفح القدمين قاضيا على بنى إسرائيل ، وأنه كان عبدا حبشيا نجارا ، فأمره سيده أن يذبح شاة ويخرج بأحسن مضغتين فيها فأخرج القلب واللسان ثم أمره أن يذبح شاة أخرى ، ويأتيه بأخبث مضغتين فيها ، فأتاه بالقلب واللسان ، فسأله سيده فى ذلك فأجابه : لم أجد أطيب منهما إذا طابا ، ولا أخبث منهما إذا خبثا ».

وأما الخرافات العبرية ، فقد وردت فى الكتاب المقدس قصصا على ألسنة الحيوان ، والقصد منها أن توضح العقائد ، وتشرح الواجبات شرحا وافيا ، « وهى المعروفة بالأمثال »

وهذه الخرافات تختلف اختلافا أساسيا عن الخرافات الهندية ، فهى مختصرة اختصارا بليغا ، وفيها قوة وروح استقلالية تخلق فيها الحياة ، وبوساطتها تصل الحقائق إلى العقول واضحة ، وتترك أثرا ظاهرا لا يمحى ، وهذا يبين لنا السبب فى بقائها منذ عهد عهيد قوية ناجحة ، فعالة الأثر .

فى العصور الحديثة :

ومازالت الخرافة تنتقل فى خلال القرون ضعيفة لا يعنى بها إلا القليل ، حتى جاء العصر الحاضر ، ورأينا من شعرائنا من عرف لغة لافنتين ، وأعجب

بخرافاته فاقتبس منها أو ترجمها . ومن أشهر هؤلاء المرحوم محمد عثمان جلال ، صاحب كتاب « العيون اليواقظ ، فى الأمثال والمواعظ » .

وهو كتاب نظم فيه الشاعر مائتى قصة معظمها على ألسنة الحيوان ، وبعضها شعر وبعضها زجل .

وها كم أهم مايسترعى انتباه القارىء فى هذا الكتاب :

(١) أن شعره من نوع غير جيد .

(٢) على الرغم من هذا نجده خفيف الروح تمتزج فيه العامية بالعربية فيحلو هذا الامتزاج ويخف على نفس قارئه وسامعه .

(٣) يختم كل حكاية بمثال كيفما اتفق ، فتارة يكون عاميا . وتارة يكون عربيا معترفا بعربيته ، وتارة يكون من وضعه .

(٤) يحاول أن يعطى حكاياته صبغة وطنية ، ويجعل حوادثها تقع فى بلاد مصرية أو شرقية ، مع أنها حكايات عالمية ، صفحة (٥٦) الحمار حامل الملح والحمار حامل السفنج . أو يرويها عن علم مشهور من أعلام الدين أو الأدب وقد لا يكون بينهما صلة إلا ضرورة الشعر .

(٥) قربها من الخرافات الغربية فى الخلو من التعقيد والاستطراد . وكثرة الشخصيات ، وذلك لتأثر منشئها بالأصل الفرنسى .

وأسوق هنا الحكايات الآتية برهانا على دعواى :

مثل الحكاية الحادية عشرة فى الثعلب والعنب :

حكاية عن ثعلب مر من تحت العنب
وشاهد العنقود فى لون كلون الذهب
وغيره من جنبه أسود مثل الرطب
والجوع قد أودى به بعد أذان المغرب
فهم يبغى أكلة منه ولو بالتعب

عالج ما أمكنه   يطلع فوق الخشب
فراح مثل ما أتى   وجوفه فى لهب
وقال هـــذا حصرم   رأيته فى حلب
والفرق عندى بينه   وبين تين العلب
فإن هـــذا أكله   يشبه لحم الأرنب
ولحم ذاك مالح   كالضرب فوق الركب
قال له القطف انطلق   ثعلب ابن ثلعب
طول لسان فى الهوا   وقصر فى الذنب

فالشعر هنا من نوع غير جديد أو « كالضرب فوق الركب » تمتزج فيه العامية بالعربية . وقوله « وقصر فى الذنب » ليس إلا المثل العامى « قصر ديل يا أزعر » ولكنه خفيف الروح يمثل الظرف المصرى ، ويعبر عن المزح الذى عرف به المصريون .

« والحكاية الرابعة والخمسون ، فى الحمار حامل الملح والحمار حامل السفنج » تتجلى فيها عدا ما ذكرت محاولة الشاعر أن يصبغ خرافاته بالصبغة الوطنية فيقول :

حمّار بولاق له حمـــير   وفى البلاد شغله كثير
حمل جحشا حمل ملح قاسى   وصار لايرثى ولايواسى
وحمل الآخر بالسفنج   وقال سبحان الاله المنجى
لحامل السفنج صار يسعى   وحامل الملح النهيق قطعا
وحين أقبلا على المعادى   ونزلا الماء ببطن الوادى
امتلأ السفنج صار مثقلا   والملح حين ذاب خف محملا
فغطس الحامل للسفنج   كغطسة البذرة فى النارنج

... ...

وطلع الملاح وهو ينهق   وهكذا رب أسير يعتق
فاصبرعلىأهوالها ولاضجر   فربما فاز الفتى إذا صبر
وربما جاءك بعد اليأس   روح بلا كد ولا التماس

فالحكاية شائعة عندنا وعند غيرنا ، ولم يكن صاحب الحمارين « بولاقيا » ولاذهب الحماران فى طريق المعادى ، اللهم حين قادهما محمد بك جلال فى شعره من بولاق إلى المعادى ، وأغرق أحدهما فى النيل ونجا الآخر ، ورجع « وهو ينهق » .

ويروى فى الحكاية الخامسة والخمسين.

حكاية عن شجر البلوط   نقلتها عن شيخنا السيوطى

والحق أن الشيخ السيوطى لم يأت هنا ، ولم يذكر اسمه إلا لأنه متزن مع « شجر البلوط » الذى فخر على الفول بعلوه وعظمته فجاءت الريح فكسرت كبرياءه ، وانحنى لها الفول واستوى هو على ساقه بعد ذهابها .

وهناك أديب آخر نظم حكايات ظريفة . وهو إبراهيم بك العرب صاحب كتاب « آداب العرب » ، وفيه حكايات غير الخرافات ، وكل شعرها جيد . وأمثالها التى تختم بها عربية .

وقد نظم المرحوم شوقى بك كثيرا من قصص لافونتين نظما جيدا ، ولكنه لم يوجه همته العالية ، ومقدرته العظيمة إلى الاختراع أو الترجمة فى هذا الباب الواسع من أبواب الأدب

بعد كل هذا العرض الموجز لتاريخ « الخرافات » من الناحية الأدبية أعرج على آثارها فى تربية النفوس فأقول : إن علماء التربية لم يتفقوا جميعا على فائدتها بل رأى بعضهم أنها خطر ، ومنهم روسو الذى قال: إنها غير خلقية ومفسدة للشبان ، وكذلك فولتير الذى وضع قيودا كثيرة عليها.

ولكن جمهور القراء وغير القراء فى كل زمان ومكان قد أحب تلك

القصص وأقبل عليها . واستفاد كثيرا من الأغراض المضمنة فيها ، وسبب ذلك أنها تسلى الكبار والصغار ، وتخرجهم من عالمهم إلى عالم آخر خيالى ، وتحمل إليهم الفضائل على ألسنة مخلوقات أضعف منهم عقلا ؛ فيدفعهم ذلك إلى الإقبال على الفضائل والنفور من الرذائل كى لا يكونوا أقل من الحيوان خلقا أو استماعا للنصح . ولا شك أن طريقتها القصصية أخف كثيرا من طريقة التلقين الجافة . ولهذا كانت أعذب موردا ، وأكثر قبولا . وقد شغل سقراط - ومركزه بين المربين عظيم - نفسه بنظم ما نسب إلى «إيسوب» . وكذلك « جوته » شاعر الألمان العظيم نظم حكايات الثعلب رينار ، وذلك بلا شك دليل على تقدير المربين لها .

ومما يتصل بالموضوع ويؤيده ما ذكره ابن المقفع فى « باب عرض الكتاب » إذ ذكر الغرض من وضع الحكايات الخرافية على ألسنة الحيوان فيقول صفحة ٥٨ .

« ولم تزل العلماء من أهل كل ملة يلتمسون أن يعقل عنهم ، ويحتالون فى ذلك بصنوف الحيل ؛ ويبتغون إخراج ما عندهم من العلل ، حتى كان من تلك العلل وضع هذا الكتاب على أفواه البهائم والطير ، فاجتمع لهم بذلك خلال . أما هم فوجدوا متصرفا فى القول وشعابا يأخذون منها . وأما الكتاب فجمع حكمة ولهوا ؛ فاختاره الحكماء لحكمته ، والسفهاء للهوه ، والمتعلم من الأحداث ناشط فى حفظ ما صار إليه من أمر يربط فى صدره ، ولا يدرى ما هو » .

فتلك أغراض العلماء وغاياتهم ، وتلك نظرات الحكماء والسفهاء إلى هذه الحكايات .

أما نصيحته للقارىء ، ونصيحتنا كذلك له ، فهى « أن يعرف الوجوه التى وضعت له ، وإلى أى غاية جرى مؤلفه فيه ، عندما نسبه إلى البهائم وأضافه إلى غير مفصح ؛ وغير ذلك من الأوضاع التى جعلها أمثالا ؛ فإن قارئه متى لم يفعل

ذلك لم يدر ما أريد بتلك المعانى ، ولا أى ثمرة يجتنى منها ، ولا أى نتيجة تحصل له من مقدمات ما تضمنه هذا الكتاب ، وإنه وإن كان غايته استتمام قراءته إلى آخره دون معرفة ما يقرأ منه لم يعد عليه شيء يرجع إليه نفعه .

ثم يختم « باب عرض الكتاب » بالسطور الآتية :

وينبغى للناظر فى هذا الكتاب أن يعلم أنه ينقسم إلى أربعة أغراض : أحدها ماقصد فيه إلى وضعه على ألسنة البهائم غير الناطقة ليسارع إلى قراءته أهل الهزل من الشبان ، تستمال به قلوبهم . . والثانى إظهار خيالات الحيوان بصنوف الأصباغ والألوان ؛ ليكون أنسا لقلوب الملوك ، ويكون حرصهم عليه أشد ، للنزهة فى تلك الصور . والثالث أن يكون على هذه الصفة فيتخذه الملوك والسوقة ، فيكثر بذلك انتساخه ولا يبطل فيخلق على مرور الأيام ولينتفع به المصور والناسخ أبدا ، والغرض الرابع ، وهو الأقصى ، وذلك مخصوص بالفيلسوف خاصة » .

وهذا الاقتباس من ابن المقفع لازم ليوضح لنا أصناف القراء والسامعين للخرافات ، وغرض العلماء من تسطيرها ، وما يجب على القارىء والسامع بإزائها .

ميكى ماوس :

ولم يقصر الغربيون فى استخدام المخترعات الحديثة فى كل شيء حتى فى الأدب ، فقد حاولوا إظهار الخرافات على الستار الفضى ، ونجحت المحاولة نجاحا عظيما ، ولا أظن فيكم من لم يشهد رواية الفأر الشهير « ميكى ماوس » وهو شخصية محبوبة جدا من رواد الخيالة ، رجالا ونساء ، شيبا وولدانا ، ولو كان فى الوقت متسع لتحدثت كثيرا عنها وعن مخترعها « ولت ديزنى » ، وعن مقدار حب الجمهور الأوربى لها . فأكتفى بما خلفته فى نفوسكم من إعجاب وسرور بمشاهدتها وبساطتها وخفة روحها .

وأختم حديثى قائلا : إن مجال القول واسع أمام الأدباء عامة والشعراء خاصة ، ولكن شعراءنا قد انصرفوا عن الجد إلى العبث وعن تسجيل أسمائهم فى سجل الخلود ، إلى المديح الغث المذموم ، الذى لاتدفع إليه عاطفة ، ولا تسيغه لهاة ، ولايؤيده الواقع . وقد كان أولى بهم أن يسيروا على نهج الشعراء الغربيين الذين أحسوا فى قرارة أنفسهم بالمعانى السامية ؛ ففاضت بها أقلامهم أدبا خالدا ، وسحرا مبينا ؟

عبد الرازق ابراهيم حميدة

التربية الأسلامية

- ٢ -

الأستاذ محمد على مصطفى

المفتش بوزارة المعارف

وروى المؤرخون أن بعض اليهود الذين عرفوا الكتابة العربية اشتغل بتعليم صبيان المدينة فى الزمن الأول .

ولما نزل القرآن على محمد عليه الصلاة والسلام زاد الاهتمام بتعليم القراءة والكتابة إذ كان لابد من نشر كتاب الله بين الناس ، وخير وسيلة لذلك معرفة القراءة والكتابة حتى يستطيع الناس قراءته وفهم ما اشتمل عايه من أصول العقائد وصنوف العبادات وسير الغابرين وأخبار الأولين، ولهذا فادى رسول الله أسرى بدر من المشركين فمن استطاع أن يدفع الفدية قبلها منه، ومن لم يكن له فداء أمره أن يعلم عشرة من صبيان المدينة ؛ إذ كان أهل مكة يكتبون وأهل المدينة لا يكتبون ففشت الكتابة بالمدينة ، وروى البلاذرى أن سبي قيسارية بلغوا أربعة آلاف رأس،فلما بعث معاوية إلى عمر بن الخطاب أمر بهم فأنزلوا الجرف،ثم قسمهم على يتامى الأنصار وجعل بعضهم فى الكتاب والأعمال للمسلمين.

تتابعت الجهود وتضافرت الهمم فى نشر القراءة والكتابة بين الناس وذهب أبناء المسلمين أول الأمر إلى المدارس التى كانت لليهود فتعلموا فيها معهم، روى الأعمش قال:قال ابن مسعود:لقد أخذت القرآن من فى رسول الله ﷺ وآله سبعين سورة وإن زيد بن ثابت لغلام فى الكتاب له ذوابة واستمرت الحال على هذا النحو حتى نشأت المساجد والمكاتب فى بعض الجهات وزادت حركة

التعليم نشاطا ، روى الواقدى أن عبد الله بن أم مكتوم قدم مهاجرا إلى المدينة مع مصعب بن عمير رضى الله عنهما بعد بدر بيسير فنزل دار القراء .

واشتد شغف الناس بالقراءة والكتابة حتى تلمسوا المعلمين فى كل ناحية وأحضروهم من الجهات النائية ليتولوا تعليم أبنائهم ، روى ابن وهب عن حفص ابن ميسرة عن يونس عن ابن شهاب أن سعد بن مالك قدم برجل من العراق يعلم أبناءهم الكتابة بالمدينة ويعطونه الأجر . وحكى ابن خلكان أن الحجاج بن يوسف الثقفى وأباه كان يعلمان الصبيان بالطائف، وفيه يقول مالك بن الريب :

فماذا عسى الحجاج يبلغ جهده إذا نحن جاوزنا حفير زياد
فلولا بنو مروان كان ابن يوسف كما كان عبدا من عبيد إياد
زمان هو العبد المقر بذله يراوح صبيان القرى ويغادى

وكان لقب الحجاج كليبا وفيه يقول الشاعر :

أينسى كليب زمان الهزا ل وتعليمه سورة الكوثر
رغيف له فلكة ماترى وآخر كالقمر الأزهر

ومن المعروف أن الحجاج مات حوالى سنة ٩٥ هـ بعد أن ولى العراق عشرين سنة والحجاز من قبل ثلاث سنين وبعد أن كان رئيس الشرطة مدة من الزمن، وكان أبوه قد سبقه إلى هذه الصناعة ، وروى سفيان بن عينية أن الضحاك ابن مزاحم وعبد الله بن الحارث كانا يعلمان ولا يأخذان أجرا على التعليم. وممن اشتغل بالتعليم فى صدر الإسلام أيضا أبو بكر الكلبي، وأبو عبد الرحمن السلمى ومعبد الجهنى، وقيس بن سعد، وعطاء بن أبى رباح ، والكميت بن زيد الشاعر إذ كان يعلم الصبيان بمسجد الكوفة .

عن الأصمعى عن خلف الأحمر قال : رأيت الكميت فى مسجد الكوفة يعلم الصبيان . ومن المعلمين الذين وردت أسماؤهم علقمة بن أبى علقمة مولى عائشة رضى الله عنها ، روى عن مالك بن أنس : وكان له مكتب يعلم فيه العربية والنحو والعروض ومات فى خلافة المنصور .

والظاهر أن حركة تعليم القراءة والكتابة كانت موفقة،حتى اطمأن العرب إلى أنفسهم ، وشرعوا فى ضبط أعمالهم ، وتسجيل أعطياتهم ، وإنشاء دواوينهم والاستعانة بالكتاب منهم فى ذلك.وأول من وضع الديوان فى الدولة الإسلامية عمر . عن الشعبي قال : لما همَّ عمر بن الخطاب فى سنة ٢٠ هـ بتدوين الدواوين دعا بمخرمة بن نوفل وجبير بن مطعم فأمرهما أن يكتبا الناس على منازلهم ففعلا. وأما ديوان الشام وديوان السواد وسائر العراق فقد بقى أولها بالرومية وثانيهما بالفارسية حتى « جاء عبد الملك بن مروان واستحال الأمر ملكا وانتقل القوم من غضاضة البداوة إلى رونق الحضارة،ومن سذاجة الأمية إلى حذق الكتابة، وظهر فى العرب ومواليهم مهرة فى الكتاب والحسبان » فأمر عبد الملك سليمان ابن سعد أن ينقل ديوان الشام إلى العربية فسأله أن يعينه بخراج الأردن سنة، ففعل ذلك وولاه الأردن فلم تنقض السنة حتى فرغ من نقله ، وأتى به عبد الملك فدعا بسرجون كاتبه فعرض ذلك عليه فغمه وخرج من عند عبد الملك وهو مكتئب حزين فلقيه قوم من كتاب الروم فقال لهم : اطلبوا المعيشة من غير هذه الصناعة فقد قطعها الله عنكم .

وأما ديوان السواد وسائر العراق فقد كان بالفارسية حتى ولى الحجاج العراق فكتب له زادان فروخ بالفارسية إلى أن قتل زادان أيام عبد الرحمن ابن الأشعث فاستكتب الحجاج صالح بن عبد الرحمن مكانه وكان صالح هذا يكتب العربية والفارسية التى لقنها عن زادان ولكن الحجاج أمره أن ينقل الديوان إلى العربية ففعل حتى قال عبد الحميد بن يحيي كاتب مروان بن محمد : « لله در صالح ما أعظم منته على الكتاب » .

مما تقدم وأشباهه نعلم أن حركة التعليم فى صدر الإسلام كانت حركة

جدية بعثها الصادق الأمين والراشدون من بعده وخلفاء بنى أمية من بعدهم على الرغم مما كان يشغل بالهم من فتوح البلدان ونشر الدين فى الآفاق . وليس من الحق فى شىء مايذهب إليه بعض المؤرخين من أن الدولة الأموية لم تؤازر الحركة العلمية ولم تشجع على نشر العلم فقد كان معاوية من الكتاب لرسول الله ﷺ ومن رواة حديثه، وكان يزيد ابنه من الشعراء المعدودين فى زمنه ، وكان عبد الملك بن مروان قبل الخلافة أحد فقهاء المدينة . قال الشعبى : «ماذا كرت أحدا إلا وجدت لى الفضل عليه إلا عبد الملك بن مروان فإنى ماذا كرته حديثا إلا زادنى فيه، ولا شعرا إلا زادنى فيه »، وإن تشجيعهم للعلم والعلماء قد اتسع مداه حتى لقد نقلت فى زمنهم الكتب من اللغات المختلفة إلى اللغة العربية .

التعليم الاسلامى

بعث رسول الله ﷺ معلما لينشر دين الله بين الناس ويعلمهم مكارم الأخلاق ويهديهم إلى طريق الحق وإلى صراط مستقيم ويرشدهم إلى سعادة العاجلة والآجلة، هو الذى بعث فى الأميين رسولا منهم يتلوعليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة، فصدع ﷺ بالأمر ولقى فى سبيل الدعوة لدين الله مالقى من بلاء ومحنة وكان من أمره مع قريش ما كان . هاجر من مكة إلى المدينة فكان الصحابة رضوان الله عليهم يجتمعون إليه فى كل وقت مع ما كانوا عليه من ضنك العيش وقلة القوت، فإذا سئل عليه الصلاة والسلام عن مسألة أو حكم بحكم أو أمر بشىء أو فعل شيئا وعاه من حضر عنده من الصحابة ، على أن نفرا من أصحابه يبلغ عددهم الأربعين كانوا يجتمعون إليه بمكة قبل الجهر بالدعوة فى دار الأرقم فيتولى تعليمهم ، وكان للنساء يوم خاص يتولى تعليمهن فيه ؛ فقد اعتنق الإسلام كثير منهن .

وقد كان رسول الله ﷺ يجلس فى مسجد المدينة ويدرس للناس العلم فى المسائل المختلفة. يدلنا على ذلك ماروى عن أبى واقد الليثى قال: بينما رسول الله

ﷺ جالس فى المسجد والناس معه إذ أقبل ثلاثة نفر فأقبل اثنان إلى رسول الله ﷺ وذهب واحد . قال فوقفا على رسول الله ﷺ فأما أحدهما فرأى فرجة فى الحلقة فجلس فيها وأما الآخر فجلس خلفه وأما الثالث فأدبر ذاهبا فلما فرغ رسول الله ﷺ قال: ألا أخبركم عن النفر الثلاثة؟ أما أحدهم فأوى إلى الله فأواه الله وأما الثانى فاستحيا فاستحيا الله منه ، وأما الآخر فأعرض فأعرض الله عنه .

وكانت مجالس رسول الله للتعليم متنازعة بين الرجال والنساء . فى البخارى عن أبى سعيد الخدرى قال :قال النساء للنبى :غلبنا عليك الرجال فاجعل لنا يوما من نفسك فوعدهن يوما لقيهن فيه فوعظهن . . . .

وروى أن أبا الدرداء كان يجلس للناس فى المسجد فيعلمهم القرآن وماينبغى أن يراعى فى قراءته .

وكان ابن عباس رضى الله عنه يلقى المحاضرات على عدد عظيم من طالبى العلم،فكان يوم للتفسير،ويوم للفقه،ويوم للنحو،ويوم لتاريخ العرب،ويوم للشعراء. ولعل هذا أول جدول دراسى فى الإسلام وقد تكون هذه أول محاضرات إسلامية ألقيت فى الهواء الطلق . ثم حل محل هذا النوع دراسة منظمة للعلوم الإسلامية بين جدران المساجد .

واتبع أصحاب رسول الله سنته فكانوا يعلمون الناس العلم ويفقهونهم فى الدين ويفتونهم فى المسائل التى يستفتونهم فيها ، وزاول الفتيا فى زمن النبى ﷺ من الصحابة أبو بكر وعمر وعثمان وعلى وعبد الرحمن بن عوف وعبد الله بن مسعود وأبى بن كعب ومعاذ بن جبل وعمار بن ياسر وحذيفة ابن اليمان وزيد بن ثابت وأبو الدرداء السابق الذكر وأبو موسى الأشعرى وسلمان الفارسى فكانوا الطبقة الأولى من المعلمين بعد رسول الله ﷺ ولقد كان بعض هؤلاء الصحابة يعرف إلى جانب اللغة العربية

لغة أخرى كالعبرية والفارسية ويلم بشيء من ثقافات الأمم المجاورة للعرب ودياناتهم كسلمان الفارسى وزيد بن ثابت وسواهما. واستعان رسول الله ﷺ ببعض أصحابه على نشر العلم فى أنحاء جزيرة العرب فكان كلما فتحت الجيوش الإسلامية بلدا بعث إلى أهله من يفقههم فى الدين ويدعوهم إلى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة، فقد اجمعو على أن رسول الله ﷺ ولى زياد بن لبيد حضرموت، وبعث أبا موسى الأشعرى ومعاذا إلى اليمن(١) وولى نجران عمرآبن حزم الأنصارى. هذا إلى ما كان يقوم به عليه الصلاة والسلام من إرساله أصحابه إلى الجهات المختلفة لدعوة أهلها إلى الإسلام؛ فقد ورد أنه لما كانت سنة ٨ هـ بعث رسول الله ﷺ أبا زيد الأنصارى وعمراً بن العاص إلى ابنى الجلندى بكتاب منه يدعوهما فيه إلى الإسلام وقال: إن أجاب القوم إلى الشهادة فعمرو الأمير، وأبو زيد على الصلاة وآخذ الإسلام على الناس وتعليمهم القرآن والسنن.

وجرى الخلفاء الراشدون على سنته من بعده فأرسل أبو بكر معاذ بن جبل وأبا الدرداء إلى الشام، وبعث عمر إلى أهل الكوفة: عمار بن ياسر على الثغر، وعثمان بن حنيف على الخراج، وعبدالله بن مسعود على بيت المال وأمره أن يعلم الناس القرآن ويفقههم فى الدين(٢)، واشتدت رغبة الصحابة فى الدعوة لدين

---

(١) كتب يزيد بن أبى سفيان إلى عمر. قد احتاج أهل الشام إلى من يعلمهم القرآن ويفقههم فأرسل معاذا وعبادة وأبا الدرداء، فأقام عبادة بفلسطين حتى مات بالرملة سنة ٣٤ هـ « الاصابة »

(٢) ففى البخارى عن أبى بردة قال: بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا موسى ومعاذ بن جبل إلى اليمن قال: وبعث كل واحد منهما على مخلاف، قال: واليمن مخلافان. ثم قال: يسرا ولا تعسرا وبشرا ولا تنفرا.

وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لمعاذ بن جبل حين بعثه إلى اليمن إنك ستأتى قوما من أهل الكتاب فاذا جئتهم فادعهم إلى أن يشهدوا ألا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله. (الحديث)

الله؛ فنزل أبو موسى الأشعرى وأنس بن مالك بالبصرة، وذهب إلى مصر عبدالله ابن عمرو بن العاص وروى أهلها عنه أكثر من مائة حديث. وممن رحل إلى مصر جابر بن عبد الله بن عمرو الأنصارى وكان له حلقة فى المسجد النبوى يؤخذ عنه فيها العلم، ثم قدم مصر على عبدالله بن أنيس يسأله عن حديث القصاص. ولأهل مصر عنه نحو عشرة أحاديث ولا بأس هنا أن نورد حديث رحلته إلى مصر لتعرف مبلغ شغف الناس بالعلم وطلبهم له مهما كلفهم من جهد ومشقة:
عن جابر بن عبد الله الأنصارى قال: كان عبد الله بن أنيس الجهنى يحدث عن رسول الله ﷺ حديثا فى القصاص قال جابر: فخرجت إلى السوق فاشتريت بعيرا ثم شددت عليه رحلا ثم سرت إليه شهرا فلما قدمت عليه مصر سألت عنه حتى وقفت ببابه فقال: ما جاء بك يا أخى؟ قلت: حديث تحدث به عن رسول الله ﷺ فى القصاص لم يبق أحد يحدث به عن رسول الله غيرك أردت أن أسمعه منك قبل أن تموت أو أموت(١).

وأرسل عمر بن عبدالعزيز نافعا فقيه أهل المدينة إلى مصر ليعلم أهلها السنن وجحثلا الرعينى إلى أهل المغرب ليقرئهم.

ولا يفوتنا هنا أن ننوه برجلين من أبطال الإسلام وأهل الرأى فى المسلمين وهما: عبدالله بن مسعود وكان من ثقاة الرواة وأصحاب العلم بالقرآن وحديث رسول الله حتى كان يسمى البحر لسعة علمه، وعلى بن أبى طالب وكان متمكنا من علوم الدين وفنون اللغة والأدب والتاريخ، ثبتا فى علوم القرآن حتى أخرج ابن سعد عن على قال: والله ما نزلت آية إلا وقد علمت فيما نزلت وأين نزلت وعلى من نزلت. وقال: قال على: سلونى عن كتاب الله فإنه ليس من آية إلا وقد عرفت بليل نزلت أم بنهار أم فى سهل أم فى جبل. ومن المعروف أن

(١) وذكر أبو عمرو الكندى أن أبا سعيد عثمان بن عتيق أول من رحل من أهل مصر إلى العراق فى طلب الحديث، ثم كثر الترحل إلى الآفاق. وكثيرا ما كان الصحابة والتابعون يرحلون فى طلب الحديث الواحد الأيام الكثيرة.

ابن أبى طالب هو أول من وضع أصول النحو . روى عن أبى الأسود قال: دخلت على أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنه فرأيته مطرقا مفكرا فقلت.فيم تفكر يا أمير المؤمنين؟قال: إنى سمعت ببلدكم هذا لحنا فأردت أن أضع كتابا فى أصول العربية. فقلت:إن فعلت هذا أحييتنا وبقيت فينا هذه اللغة.ثم أتيته بعد ثلاث فألقى إلى صحيفة فيها: بسم الله الرحمن الرحيم:الكلام كله (كله) اسم وفعل وحرف الخ ..

ولقد أخلص الصحابة والتابعون لدينهم القويم وجدوا فى نشره ووقفوا أنفسهم لخدمته وتنافسوا فى ذلك حتى قامت فى كثير من البلاد حركة فكرية عظيمة جعلتها مركز الثقافة الإسلامية ومقر الآداب العربية وموئل طلاب العلم ، ومن بين تلك البلاد مكة المكرمة ومدينة الرسول ﷺ والبصرة والكوفة وحمص ودمشق ومصر وغيرها.

روى أن عمر بن عبد العزيز بعثه أبوه إلى المدينة يتأدب بها فكان يختلف إلى عبيد الله بن عبد الله يسمع عنه العلم وكذلك كان عبد الملك بن مروان يطلب العلم بالمدينة حتى صار أحد فقهائها وأصحاب الرأى فيها .

وعلى هذا النحو انتشر العلم فى الأقطار العربية ووجد طريقه إلى القلوب فأنار البصائر ، ذلك هدى الله يهدى به من يشاء ؟

محمد على مصطفى

من الأدب الأندلسى

خالد الأندلس

للأستاذ عبد العظيم على قناوى

فى الهزيع الثالث من الليل أو فى قرابته كان كل ماعلى وجه مدينة « البشكنس [1] » خادرا سادرا لا تسمع فيه نأمة ، ولا تحس حركة ؛ إذ لعب الكرى بمعاقد الأجفان ، وأخذ الوسن كل إنسان ، ولبست تلك المدينة الحافلة سرابيل السبات ، وطافت بأهليها أطياف من المنى أو الجوى ، وألمت بحلومهم الأحلام والرؤى ، فهذا صب أضناه الوجد ، وبرح به الهوى ، لم يدرك من حبيبته طلبته ، ولم ينل منها رغيبته ، فلجأ إلى الحلم يستعديه ، ولاذ بالخيال يستدنيه وكأنى به ينشد :

إن كان واديك ممنوعا فموعدنا   وادى الكرى فلعلى فيه ألقاك

فهو يتخيل فى رقدة السحر حلو السمر ، وينظر بعين طيفه مالكة لبه ، وآسرة قلبه أسيرة لديه ، قائمة بين يديه ، يستدنيها فتلبي اختيارا ، ويأمرها فتأتمر ائتمارا ، قهرته فى وضح اللياح ، فملكها فى غسق الدجى ، واسترقته يقظ الحواس فاستولى عليها لا يأبه يقظة الحراس ، وتطول به الأخيلة فيتمنى ليلا وقفت نجومه ، أو صبحا ضلت ذكاؤه ، وكأنى به ينشد :

---

(١) اسم إحدى مدن بلاد الأندلس .

ورداء ليل بات فيه معانقى   طيف ألم لظبية الوعساء
فجمعت بين رضابه وشرابه   وشربت من ريق ومن صهباء
ولثمت فى ظلماء ليلة وفرة   شفقا هناك لوجنة حمراء
والليل مشمط الذوائب كبرة   خرف يدب على عصا الجوزاء

وهذا ثرى جمع المال كل همه، ولم الوفر همامة نفسه، لا يؤرث مرقده إلا استثمار لجينه ونضاره، ولا يقض مضجعه إلا استزادة ضياعه وعقاره، فهو طوال نهاره يجمع ويطرح، وسدفة ليله يقدر ويصور، حتى يثقل رأسه المفعم بالأفكار، وتخمد جذوة فكره المشتعلة بالأسعار، فيسلمه الكد إلى الفراش مستوحيا فى هجعته مالم يتم بحثه فى يقظته. ولعله يرقب فى نومه وحيا وإلهاما لا أحلاما وأوهاما.

وذلك بائس قذفت به الأقدار فهو نضو أسفار، براه السرى، وأقعده النوى، يلتمس لجنبه الراحة فلا يجـــد مآبا يثوب إليه، ولا نزلا ينزل فيه، فأكرم بالثرى موطنا، وأعظم بالسماء ملتحفا، يغفو وتشتد غفوته، فيشعر أنه نزيل قيصر، أو مفترش بسط كسرى ويروح فى سبت عميق.

تلك والدة تحتضن رضيعها وتضمه إلى صدرها، حتى لتحسب أنها تتمنى أن يعود إلى بطنها؛ لأن الدنيا يضيق أفقها بعطفها عليه، فهى لأجله فى شغل دائم؛ تنام إن نام وتهم متى هم، تناجيه وتناغيه، وتلاعبه وتداعبه، حتى تغازل السنة إنسانيهما فينامان هانئين بذلك الحب السعيد والوله الشديد.

وهل فى الدنيا كلها غير هؤلاء وأشباههم؟ فمن فيها لم يغمض جفنه، أو لم يرح جنبه؟

٢

فى الدنيا غير أولئك وهؤلاء أكثر تعسا وأشد بؤسا من التعيس البائس، وأعظم لوعة وأقسى حرقة من ذى الكربة اليائس، فهذه «سعدى» ولهى

القلب،معمودةالفؤاد ، مصدعةالنفس،مكبوتة الآمال ، ضاق بها محيط كنيسة « البشكنس » فصعدت فى سمائها تناجى رب السموات ، وتساهر مصباحها الثريات ، تشكو إليها همها ؛ فى عبارات العبرات أسطارها ، وكلمات الكلوم آثارها ، فمن حديثها الملتاع ونجواها الزافرة :

ويحى ! ويحى ! من هذا الذى يزعمونه خالد الأندلس ، وسيف الإسلام ، وقاهر الشرك ، ومعلى كلمة الحق ، وأخيرا عاهل يعرب وتميم ، ويلى على مطأطىء جباه القياصرة ، ومحطم كتائب الجبابرة ، ومرهب العتاة الطغاة ، والضارب على يد كل معتد أثيم . ويلى عليه لأنه يزعم عنه أنه ثل العروش، وفل الجيوش، بينا أولئك الذين دانوا لسلطانه يأسرون امرأة لا جريرة لها إلا انتسابها إليه ، ولا خطيئة سوى رسوخ إيمانها ، إنه الآن يسعد بالنوم فى قصر «الزاهرة» على فرش الخز والديباج،وسرر الفضة والذهب، بين حور القيان،وغوانى اليونان، يسق كئوس النعماء دهقا ، ويكرع أكواب السراء غدقا ، يصبح فيصطبح إن شاء بخمر الجنان ، وإلا فببنت الحان ، ويمسى فيغتبق بابنة العنب أو بسلافة الأدب ، بين أخدان خافوه فكتموه حقيقة أمته ، ورهبوه فخدعوه فى شئون رعيته ، حتى مدواله فى الخيال ، فأنشد معتزا دون عزة ، مفتخرا بغير مفخرة :

رميت بنفسى هول كل عظيمة   وخاطرت والحر الكريم يخاطر
وماصاحبى إلا جنان مشيع   وأسمر خطى وأبيض باتر
فسدت بنفسى أهل كل سيادة   وفاخرت حتى لم أجد من يفاخر
وإنى لزجاء الجيوش إلى الوغى   أسود تلاقيها أسود خوادر

أين هو من حفيد العباس « المعتصم » ؟ ذلك الذى قوض أركان دولة ، وأدال تاريخ أمة ؛ لأنه أنهى إليه أن امرأة هاشمية وقعت فى أسر « توفيل » ملك الروم ، فكانت تنادى « وامعتصماه » فخالف مشيريه،وما أبه أقوال منجميه، وسار فى فيلق جرار يخرب وينهب ، ويقتل ويسبى حتى بلغ مكان أسيرته،فضيق

على المدينة الخناق، وأدنى سادتها إلى السياق ، فتحدثت بنجدته الركبان، وسارت بمروءته الأمثال ، ولله أبو تمام إذ قال :

تسعون ألفا كآساد الشرى نضجت جلودهم قبـــل نضج التين والعنب
يارب حوباء لما اجتث دابرهم طابت ، ولو ضمخت بالمسك لم تطب
ومغضب رجعت بيض السيوف به حي الرضا عن رداهم ميت الغضب
خليفة الله : جازى الله سعيك عن جرثومة الدين والإسلام والحسب
بصرت بالراحة الكبرى فلم ترها تنال إلا على جسر من التعب

بمثل هذه العزة القاهرة تسمو الأمم . وعلى تلك النخوة القاسرة تعلو الدول ، لا بذلك الذى يترك المسلمة الحصان ، الراسخة العقيدة القوية الإيمان ، بين غوادر الذؤبان ، أولئك الألى طغى عليهم الجحود واستولى، وران على عقولهم الكنود واستعلى ، يتركها سليبة الحربة فى كنيسة لا تسمع فيها إلا لغو القسس ودق النواقيس ، تعلن لا عن التوحيد بل عن التثليث ، فتصم منى أذنى ، فإذا دعانى داعى الصلاة أرهفها لتسمع من يعلو باسم الله صوته فلا أكاد أتخيل لما أتمنى صدى .

أى فخر لهذا الذى يلقب نفسه المنصور؟ وهو من النصر — ولو ملك الخافقين، وخفق لواؤه على الأقصين — جد بعيد ؛ لأن أسر النساء أسوأ مظاهر الخذلان، وأنكى دلائل الطغيان

مالك ياقلبي تؤنبنى ، وتنعى على ثورة جنانى ، ومايجيش به وجدانى فيجرى به لسانى ؟ إنك لتحدث أن المنصور لم يصل إليه مجمل شأنى بل مفصله.ولو أنه ألم به لثارت لكرامته ثورته، ولحفزته لخلاصى همته ، ولشبت الحرب الزبون، ولقطع إلى المهامه الفيح . بكل سمح لا خوار ولا طليح . أليس المنصور قد أشعل تسعا وخمسين موقعة للحرب لم يسقط له فيها علم ، ولا فل له فى جنباتها صارم خذم ؟ وما على ياقلبي أن يكون ماتحدثنى به صحيحا إذا قلت ما قلت

وهأنذا فى الإسار نائية عن الوطن . آه ! لو أن أسرى فى غير هذه البقعة ، وبين غير أولئك الطغام لهان الخطب ويسر الكرب ، ولدافعت جنانى أن تجول به هذه الخواطر ، وعقدت لسانى أن يدور بتلك القوارص ، ولكن أنى لى الصبر ؟ وأنا أصبح فى وصب ، وأمسى إلى نصب؛ أستقبل الصباح القسس والرهبان، يلوون ألسنتهم بالزور والبهتان ، فأصحو على القذى ، وأغفو على جمر الغضى ، حسبى ياقلبى ولأتذرع بالصبر ولأتجمل بالعزاء .

٣

ذا طرف من حديث تلك المرأة الثكلى ، وأى ثكل أشد من ثكل الحرية؟ وأى أسى أمض من أسى الإسار ؟ وإنها لتناجى بارئها تارة وتتحدث إلى نفسها أخرى ، بما يعتلج فى فؤادها من تلك اللوعة المعذبة والوحدة المضنية ؛ إذ أسرت إليها إحدى الراهبات التقيات اللائى رثين لحزنها ، وثارت فى نفوسهن من أجل بؤسها عاطفة الإنسانية وتناسين العقائد الدينية — أسرت إليها بأن أحد أعوان المنصور وفد متفقدا مستطلعا ، ولا بد من زيارته تلك الكنيسة، فهى أعظم كنائس «البشكنس» لما فيها من تهاويل وتماثيل، ونصب وتصاوير، مما يبهر الحاذق الصناع ، ويفتن كل مخترع فنان ، ومن لم يمتع طرفه بزيارة تلك الكنيسة فإنه لم ير من آثار حضارتنا شيئا ، نخفق لهذا الخبر المباغت قلب «سعدى» وعلمت أن الله ـ سبحانه ـ قد استجاب دعواتها ، فلبثت تعد الساعات ، وتتوهم الأيام سنوات ، حتى رأت الزينات تقام، وأقواس النصر تنصب ، والأعلام فوق الدور تخفق، والطرق تعج بالعاملين ، فعلمت أن نائب مليكها فى طريقه إلى الكنيسة ، فزورت فى نفسها كلاما تقوله ، فلما وصل تريثت حتى شاهد الآثار والتحف، وتأمل فى العاديات والطرف ، ثم تقدمت إليه فى رباطة جأش ، ففصلت من أمرها المجمل، فاندفعت فى الحديث متدفقة لا يقف فى سبيلها شىء ، فقالت من حديثها :

إن إسارى أنا التى تربطنى بالمنصور بن أبى عامر أكثر من آصرة، وتصلنى

وأسبابه غير رابطة لأكبر الخزى وأخزى العار ، فأين هذه النجدة التي ينسبونها إليه ، والهمة التي ينعتونه بها ؟ أين هي حتى تقع مسلمة مثلي في شراك هؤلاء المارقين ؟ أيرضى المنصور أن ينسى بتنعمه بؤسها ، ويتمتع بلبوس العافية وقد نضت لبوسها ؟ ألست أساوى عند الله أم المنصور نفسه ؟ فلقد قال أمين هذه الأمة « لافضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى » فهل لو أن الحبيسة أمه أو أخته أيغفل أمرها ويلهو بملاذه عنها ؟ فتبقى بتلك الكنيسة محبسه ، وبكل ذل وصغار ملبسه .

أيها السفير الأمين : إنى لأناشدك الله ذا العزة ، وأستحلفك بالمروءة والنجدة إلا أظهرت المليك على أمرى «فلعل له عذرا ونحن نلوم» ولايخالجنى ريب فى أنه سيجيب داعى النعرة العربية ، ويلبي نداء العزة اليعربية ، فيسعى لخلاصى قائما وقاعدا،رابضا وواثبا،فى سدفة الليل وومضة الصبح ، فما كان وهو من سلالة الأنجاد من يعرب ، وله خئولة الأمجاد من تميم بالذى يرضى لى الأصفاد ، أو يتريث فى رد حريتى ، وأنا فى هاتيك الأغــلال . فعاهدها الرسول على أن يدلى إلى المنصور بشكواها، وأنها لابد ناجية من القوم الظالمين.

٤

أنهى الرسول الزيارة بعد أن طوف فى ذلك الإقليم الزاخر بالخيرات الملىء بالعاديات — ماحلاله التطويف ، فلما عاد إلى المنصور وصف له المدينة ورياضها ، والأرباض وغياضها ، والملك وجنده ، والحكم ونظمه ، والقلاع والحصون،والمسارب والسدود،والحيوان والطير ، وكل سائروسارب ، والملك يُصغى إليه حتى أتم جميع مالديه ، فسأله مولاه قائلا : « هل وقفت هناك على أمر أنكرته أم لم تقف على غير ماذكرته ؟ » فقال الرسول : ليس لدى يامولاى من الحديث مايبعث فى النفس غبطة أو يرسل إلى القلب مسرة غير ماقدمت ، فقال المنصور:بل أريد الحقائق مجردة ، وسيان عندى بعد ذلك أن

نسوء أو تسر ، فإنى على هذا العرش مسئول عن رفاهة شعبى ، واستطلاع شئونه : فإما جذلت وزادنى جذلى سعيا فى الخير ؛ وإما وثبت لدفع الضير . فقال الرسول وقد بعث المليك فى نفسه الجرأة وأحيا فيه الحمية :وقفت يامولاى فى تجوالى على امرأة أسيرة فى إحدى كنائس « البشكنس » وقد أفضت إلىّ بآلامها وأودعتنى آمالها ، فقطب المنصور أساريره ، وملأت الحفيظة عطفيه، وقال : كان عليك البدء بقص أمرها فهو آثر عندى من جميع ماقصصت ، واشتد فى تأنيبه لعرضه عليه تافه الأمر دون جليله ، وقال : ويلى من حساب الله يوم تعرض عليه أمرها ! أأهنأ وتشقى؟أأسعد وتؤذى ؟ » ثم أخذ للجهاد من فوره، وعرض من أجناد فى نجده وغوره » وعبأ كل من يستطيع للسلاح حملا ، ثم لبس لأمته وأعد عدته ، « وأصبح غازيا على سرجه ، مباهيا مروان يوم مرجه » وسار يقتحم الغور والنجد،ويطوى السهل والوعر ؛ حتى وصل بعد يده وسلبه إلى المدينة » ووافى ابن شانجة فى جمعه ، فأخذت مهابته ببصره وسمعه ، فبادر بالكتاب إليه يتعرف ماالجلية ؟ ويحلف له بأعظم ألية أنه ماجنى ذنبا ، ولا جفا عن مضجع الطاعة جنبا » فعنف أرساله وقال لهم : كيف لم ينقض موثقا « وقد عاهدنى ألا يبقى ببلاده مأسورة ولا مأسور ، ولو حملته فى حواصلها النسور » وقد وصل إلى نبأ ينبىء أنه خان إذ عاهد ، وخاس حين وعد ؛ إذ أحل لنفسه أن يبقى فى أسره امرأة مسلمة ، وجعل مثواها إحدى كنائسه؛إشعارا لها بالذلة . فوالله رب محمد لأكتسحن أرضه وأقوضن ملكه ، فقال أحد الرسل: مولاى ، لقد عقدنا لك لواء السمع والطاعة ، فغفرا لذنب لم نتبينه وعفوا عن جرم لم نتعمده ، فقد دخلنا فى الطاعة مسلّمين ، ورضينا بعدالة حكمك طائعين، فليس من عدلك الذى ملأ الآفاق أن نؤخذ بجريرة لم نتعمد اقترافها ، وقد أقررنا بالخطيئة ، فإما عفوت وإما اقتصصت ، ونحن فى الحالين أرقاء عدلك ، وموالى حكمك ، وإن الملك فى سبيل مرضاتك أمر بالكنيسة المشئومة أن

تهدم ، ومازال ذلك شأنهم يتضرعون متوسلين ، ويتوسلون متضرعين ، يبدأ أحدهم الوسيلة حتى تطير صوابه نظرات الملك الملتهبة فيسعفه غيره ، وهكذا دواليك يستدنون طوله،ويستحيون عطفه،حتى صدرت عنه كلمة العفو ، فردت إلى نفوسهم طمأنينتها، وعاد إلى سيدهم ذماؤه .

أما المنصور فقد غير من حالها ، وعاد بسوا كب نعماه على جدبها وإمحالها، وحملها إلى قومها ، وكحلها بما كان شرد من نومها، واستحق منها أن تنشده :

تلاقت عليه من تميم ويعرب شموس تلالا فى العلا وتدور
من الحميريين الذين أكفهم سحائب تهمى بالندى وبحور؟

عبد العظيم على قناوى

فنون الأدب

منابعها وبواعثها

للأستاذ عبد الحميد حسن

للعقول جولات فى شئون الحياة ، وللنفوس تموجات تنم عن دخائلها ، وللفطرة الإنسانية نزوع إلى تصوير ألوان الحياة ، وميل إلى الإفصاح عما يخالج النفس ؛ مما ينشأ عن الدوافع الباطنة ، أو عن المؤثرات التى تنجم عن البيئة الطبيعية أو الاجتماعية ،

فهذا الميدان الفسيح الأرجاء من التجارب الفردية ومظاهر المجتمع ، إذا ما كانت اللغة وسيلة لرسمه وأداة للتعبير عنه — هو ميدان الأدب ، وما ينتجه العقل فى هذا ويصوغه فى أسلوب جيد من النثر أو النظم هو الأدب .

فالأدب: هو الخالص الصافى من تجارب الحياة، والواضح الصادق من ألوان النفوس؛ يصاغ فى صورة رائعة من الأساليب الشعرية أو النثرية، فيكون للنفوس خير غذاء ، وللعقول صاقلا ، وللهمم شاحذا ، وللميول الإنسانية أقوى حافز إلى كريم الشيم .

وهو من الفنون الجميلة التى تزدهر بها الحياة وتنشط النفوس ، وإن أعلام البيان فى الأمم هم مصابيح هديها ، وضوء حياتها ، ومرآة ماضيها وحاضرها ، وهم الذين يوقظون نبيل العواطف، ويحفزون الهمم إلى جلائل الأعمال ويصورون

مايجول بالنفوس من خواطر ، وماتـكن القلوب من ميول طامحة أو جامحة، معوجة أو قويمة .

ولكل أمة راقية أدب مأثور ، تدل ألوانه وضروبه على حظها من الثقافة ونصيبها من الحياة العقلية والاجتماعيةوالخلقية ، وتنم اتجاهاتهعنطبعها وروحها العامة . ولاتزال آداب الأمم الراقية من المناهل العذبة التى ترتشف منهاالعقول رحيقا سائغا .

وحظ البيئات والشعوب والأفراد من الأدب يختلف صعودا وهبوطاً وقوة وضعفا ، ونباهة وخمولا ، فليست جميع البيئات موطنا خصبا للأدب وللأدباء وللإنتاج الأدبى ، وليست جميع الشعوب ذات حظ من القرائح الخصبة . وللأمم فى حياتها مراحل نهوض وانتعاش ، وعصور ركود وفتور عقلى وحيوى ، والأدب يسير فى الغالب تبعا لذلك ؛ فهو وليد البيئة، ونتيجة القرائح ، وارتباطه وثيق بثقافة الأمة وانتعاش حياتها ، وماتتمتع به من حرية ورخاء ، وبما لأفرادها من خلال تميل بهم إلى الطموح أو إلى الاستسلام .

وسنعرض فى كلمتنا إلى أثر العوامل المختلفةفى فنون الأدبلنعرفالبواعث التى تتجه بالأديب إلى فن منفنون القول ، ولنتبينالأسبابالتىتجعلهيجيدفىأحد فنون البيان،ولنتعرف المعين الذى ينبع منه هذا ، أمن داخل النفس أم بإملاء من البيئة وبوحى من العوامل الخارجية ؟ وهل كان ذلك تقليدا أو ابتكارا ، طبعا أو تكلفا ؟

سنمر بهذه العوامل والبواعث لنعرف الصلة بين الإنتاج الأدبى ومنابعه؛ ليكون لنا من هذا عون على النقد والموازنة بين مختلف القولومتباينالمنازع.

✡✡✡

لاجدال فى أن الأدب صورة للنفس وللمجتمع ، وأثر من آثارهما ، أو أنه يجب أن يكون كذلك ، إلا إذا افترضنا أن الأديب سيتجرد عن سجيته

ويتلون بغير شيمته ، ويتغلب تطبعه على طبعه ، ويخرج على قوانين المجتمع فلا يلبي دواعيها ، ولا يستجيب لمؤثراتها.

ولا نقول : إن هذا الافتراض بعيد الحدوث ، بل إن الواقع يحتم علينا التسليم به ، فإن من الكتاب والشعراء فريقا يقولون بألسنتهم مافي نفوس غيرهم، وينسجون المعاني على منوال من سبقهم أو عاصرهم ، وينتحلون من الأخيلة والأساليب ما لافضل لهم فيه إلا النقل والتغيير والتسطير .

على أن هذا لاينافي أن الأدب إنما هو صورة لنفس بشرية ولبيئة إنسانية، وإن كانت هذه النفس هي نفس غير نفس القائل ، وهذه البيئة قد تخيرت من لم يتأثر بها مستودعا لإيحائها . بل إن هذا النقل والأساليب التقليدية إذا فشت في عصر كانت ظاهرة تدل على نفوس أدبائه وكتابه وشعرائه ، فإن قاعدة ارتباط الأدب بالفرد وبالمجتمع قاعدة لا ينقضها مايتفشى الأدب من تصنع في أساليبه وتقليد في صوره ومعانيه ، يبعده عن التعبير الصادق عن دخائل النفوس، ومايلم بها من مؤثرات .

فالبواعث التي تنشأ عنها فنون الأدب ترجع إلى الفرد وإلى البيئة بنوعيها: الطبيعية والاجتماعية .

***

أما الفرد فتتنازعه عوامل من سرور وألم ، وهدوء وغضب ، وجموح وطموح ، أورضا واستسلام ، وقد يكون نابها أو خاملا ، مثقفا أو جاهلا ، ولكل هذا أثره في إنتاجه العقلي ، وفي تأثره أو تأثيره فيما حوله ، فإنا إذا بحثنا في أعماق النفس الإنسانية نجد ذلك القبس الروحاني الذي تختلف درجات إشعاعه وقوة إضاءته ، ونلمح هـــذه النزعات المتوجة التي تهدأ حينا أودائما، وتضطرم آونة أو تكون دائبة الصراع ، ونجد العواطف نبيلها ودنيها، ونتبين

دخائل العقل ومدى ثقافته، ونرى رضىّ الأخلاق وعنيفها، ونلمس الإرادة الطامحة والقابعة،والنفس الراغبة والراهبة. نجد كل هذه الألوان النفسية التى تندرج تحت المظاهر المعروفة فى علم النفس وهى:الفكر والوجدان والإرادة. ولكل مظهر من هذه أنواع من الأدب تنشأ عنه:

(١) فالفكر تنشأ عنه فنون الأدب ذات الصبغةالفلسفية والحكموالمواعظ والأمثال، وقد تكون الثقافة عونا فى هذا الصدد. وقد يكون للفطرة السليمة وللنظرات الإنسانية الصادقة خطرها وأثرها، ولنا فى الآثار الأدبية للعرب فى العصر الجاهلى أعظم شاهد، وإن للأعراب الذين وفدوا على الخلفاء والحكام من روائع البدائة وصائب الآراء وبالغ الحكم—مايدل على أن الفطرة إذا صفت كان لها من الإلهام الذى توحى به مظاهر الكون، مالا نظفر به فى كتاب مصنوع،أو منهج دراسى مخطوط أو مطبوع.

(٢) والإرادة تنشأ عنها أنواع الأدب ذات الصلة بالرغبة والرهبة والشجاعة والجبن: كالحماسة والاستجداء والاعتذار وكألوان القول الممزوجة بالملق والذلة.

وقد يشاب بعض ماينشأ عن ضعف النفس من هذه الأنواع بعزة كامنة وقوة تبدو من وراء ستار، وقد نلمح فى الأدب قوة نفس ظاهرة متكلفة،ولكن الضعف والملق يظهران من خلالها، وهذا إنما يكون فى العصور التى يغمرها التصنع والتكلف فى مظاهر الحياة،فيبعد أدباؤها عن صريح القول،ويلجئون إلى المداجاة فلا يكون أدبهم فطريا سليما.

(٣) والوجدان هو الوتر الحساس والمورد العذب لكثير من فنون الأدب، ومنه تنشعب العواطف النبيلة أو الوضيعة، وعنه تنشأ المعانى الموسيقية والأغراض المرحة كالغزل والنسيب والتشبيب والمجون والفكاهات والشعر الغنائى ومايتصل بذلك. ويزداد هذا الجانب نشاطا بما فى البيئة من عوامل

السرور ، ومظاهر البهجة ، وبانتشار الأمن والرخاء . على أن للتكوين الفطرى فى هذا شأنا ؛ فمن الناس من يغلب عليهم الاكتئاب والتشاؤم والنظر إلى الحياة بمنظار مظلم ، ومنهم من يميل إلى مباهج الحياة ويرى الأشياء من نواحيها السارة المرحة، ومنهم الحاد المزاج السريع الانفعال ، ومنهم النابت الجأش الهادىء الجنان.

(٤) ومن البواعث ذات الشأن فى فنون الأدب الخيال ؛ فقد يمتزج بالتفكير وبالوجدان فيكون له أثر فى ألوان القول، وشأن فى بعض فنون الأدب: كالأدب التمثيلى الذى تمتزج فيه عناصر الموسيقى والغناء ، وكالوصف المقرون بدقيق التشبيه ورائع الاستعارات، وكالقصص والروايات، وكالتمدح بالجمال الطبيعى أو النفسى ، وينشأ عن ذلك أيضا الفخر والعجب والرثاء وغير ذلك .

٭٭٭

يتجلى لنا مما تقدم أن للجو النفسى ضروبا من الألوان، وأنواعا من التقلبات، وهو فى هذا أشبه بالجو الطبيعى فى اختلافه ـ على مرور أيام العام ـ حرارة وبرودة ، وجفافا ورطوبة ، فتارة يهب النسيم العليل ، وأخرى تعصف الأعاصير، وطورا يمتزج الهواء بشذا الورد والرياحين فينعش القلوب، وطورا آخر ينقلب سموما يلفح الوجوه .

ولكل هذه التقلبات أسبابها التى ترجع إلى اختلاف الفصول، وإلى طبيعة البلاد، وماقد يكون فيها من جبال وهضاب وبحار وأنهار وإلى خصبها أوجدبها، وتلبد السماء أو صفائها، كما أن لاختلاف النفوس فى طبائعها أسبابا ترجع إلى الفطرة أو النشأة أو البيئة أو غير ذلك.

٭٭٭

ومن العوامل المؤثرة فى الأدب وفنونه البيئة بنوعيها :

(١) فأما البيئة الطبيعية فأثرها بين فيما نراه فى فنون الأدب من رقة أو ضخامة ، وشدة أو لين ، وسهولة أو تعقيد ، فللصحراء وهدوئها ، ومناظرها

الشاسعة، وفضائها الممتد إلى السماء — ما يبعث المعانى الفطرية، ويوحى بالعواطف الهادئة، وللخصب والنماء والحدائق الغناء والبساتين والأزهار والأنهار ما يبعث المرح ويثير الإعجاب بجميل المظاهر ونضارة الطبيعة، وللجبال الشامخة التى تطاول بغواربها أعنان السماء من الأثر ما ليس للسهول المنبسطة والوديان المخضرة .

لكل هذه المظاهر الطبيعية آثارها فى النفوس، وفيما تجود به القرائح من نثر ونظم، وإنا لنلمح هذا الأثر فى شعر البدو وفى شعر الحضر، وفى شعراء الصحراء وشعراء الحواضر الزاهية بالمخضر من الأشجار والجارى من الأنهار.

(ب) وأما البيئة الاجتماعية فمرجعها إلى ما للأمة من نظام فى حياتها العامة وفى حياتها المنزلية، وإلى حظها من الحرية، وما تميل إليه من ألوان المسرات والملاهى، وإلى ما هنالك من مجتمعات وأندية لشتى أنواع النشاط، ودور للتمثيل أو الغناء أو الموسيقى، وحفلات أو شعائر فى أعيادها ومواسمها، كل أولئك له فى حياة الأمة واتجاهها العقلى وإنتاجها الأدبى أثر .

***

وبعد فهذه جولة سريعة فى العوامل التى تتحكم فى أنواع الأدب وتوجه فنونه . ولعلى أعود إلى الموضوع فى فرصة أخرى إن شاء الله لتعزيزه بأمثلة من الأدب العربى تفصل مجمله، وتزيده وضوحا؟

عبد الحميد حسن

المنظـــــــــار

مسرحية من ثلاثة فصول ألفها الـكاتب الإنجليزى

« سدنى جرندى . Sydney Grundy » وقدمت

إلى مسرح جارك « Garrick theatre »

فى لندن سنة ١٨٩٠

الفصل الثالث

المنظر :

١ — نفس المنظر السابق فى وقت المساء .

٢ — مسز جولدفنش تخيط فى ثوب .

مسز جولدفنش: لا أستطيع أن أعرف ماذا أصاب « بن » ؟ لقد تغيرت طباعه فى هذه الأيام تغيرا تاما . إننى أعجب كيف يطلب سجل حساب المنزل ! ولماذا أخذ رسائله الخاصة من درجى ... هذه الرسائل التى كتبها هو إلى قبل زواجنا ؟ إن هذا التصرف يجعلنى أجزم بأنه ما أحبنى كثيراً .

(يدخل جويس ومعه ميزان)

مسز جولدفنش: ميزان ؟ أتحضر ميزانا هنا ؟ لماذا ؟

جويس : لاأعرف ياسيدتى . هكذا كلفنى سيدي أن أشترى ميزانا !

مسز جولدفنش: هل رجع السيد جريجورى ؟

جويس : إنه على موعد مع السيد رتشارد « دك » في فندق « جريفن »
وقد يتأخر هناك بعض الوقت

(تدخل شارلوت ويدها مملوءة بقوائم حساب)

شارلوت : ها هى ذى قوائم الحساب

مسز جولدفنش: ماهذه ياشارلوت ؟

شارلوت : إن سيدى طلب جميع قوائم حساب المطبخ

مسز جولدفنش: أين سيدك ؟

شارلوت : فى حجرة المكتب ياسيدتى . إنه يراجع سجلات حساب
المطبخ . لست أعرف ماذا قد طرأ عليه !

مسز جولدفنش: ولا أنا ..!

(يدخل جولد فنش)

جولدفنش : جويس

جويس : هاهو ذا الميزان ياسيدى .

جولدفنش : تذكرْ أن تزن الباعة !

جويس : أزنُ الباعة ! ؟

جولدفنش : أقصد أن تزن بضائعهم . ولكن قفْ سأزنها بنفسى . عندما
يأتى شىء نادنى .

جويس : مشيئتك ياسيدى.

(يخرج جويس وشارلوت)

مسز جولدفنش: ولم كل هذه الاستعدادات ؟

جولدفنش : لأنى أريد ذلك .

مسز جولد : بن — لا أحب أن أراك بهذا المنظار .

جولدفنش : إنه منظار جريجورى .

مسز جولد : نعم — وهذا هو السر فى أنى لا أحبه .

جولدفنش : لم أسترح إليه أنا نفسى فى أول الأمر ، ولكنى الآن ألفته إنه يوافقنى .

مسز جولد : إنك فى هذا المنظار شخص آخر .

جولدفنش : وأنا فعلا أصبحت شخصا آخر . بالأمس كنت أبله ، واليوم أنا رجل عاقل .

(تدخل شارلوت)

شارلوت : أتسمح ياسيدى فتعطينى مفتاح حجرة الغسيل ؟

جولدفنش : [مخرجا من جيبه مجموعتين من المفاتيح] أين مفتاح حجرة الغسيل بين هذه المفاتيح ؟ أعرف أنه مفتاح كبير ، وهاهنا كثير من المفاتيح الكبيرة !!

[يدخل جويس]

جويس : أتسمح ياسيدى فتعطينى مفتاح حجرة الأغذية ؟

جولدفنش : انتظر حتى أجد مفتاح حجرة الغسيل . هاهى المفاتيح كلها — ولكن يجب أن ترد إلى حالا . أخبر السيد پرسى أنى أطلبه .

[يخرج جويس وشارلوت ومعهما المفاتيح]

مسز جولد : ألا تجد أن مفاتيح كثيرة كهذه شىء متعب ؟

جولدفنش : سأعتاد حملها .

مسز جولد : لماذا تستدعى پرسى .

جولدفنش : إنه يبذر كثيرا . أريد أن أقول له كلمة أو كلمتين كى يقلع عن هذا الإسراف .

مسز جولد : يبذر كثيرا ؟

جولدفنش : نعم — ولقد قطعت الأمل من (پرسى) أيضا .

[يدخل پرسى]

پرسى : أبى . أأنت تطلبنى ؟

جولدفنش : أرى أسمك فى سجل حساب أمك ٥ يناير ، پرسى جنيهين أرنى هذا المبلغ .

پرسى : لا أقدر مع الأسف . لقد كان ذلك فى يناير ، ونحن الآن فى يوليو.

جولدفنش : مرة أخرى ١٤ أبريل ، پرسى : جنيها ونصف جنيه . لماذا أخذت هذا المبلغ .

پرسى : لأشياء مختلفة . إنه نفقات جيب .

جولدفنش : سأعطيك من اليوم عشرة جنيهات شهريا . وأحذر أن تنفق أكثر منها .

پرسى : عشرة جنيهات شهريا ؟ أننى ما كنت آخذ أكثر من خمسة.

جولد فنش : يجب أن تتعلم قيمه النقود . هذه هى الدفعة الأولى (يعطى برسى عشرة جنيهات)

(يدخل جويس)

جويس : لقد حضر القصاب ياسيدى ومعه لحمة الصباح .

جولد فنش : آه ، لقد كنت منتظراً لذلك القصاب (يلتقط الميزان ويخرج معه جويس)

(يسمع جريجورى متكلما قبل أن يدخل)

پرسى : كم أتمنى أن يعود عمى إلى منزله فى « شيفلد » !

جريجورى : « إلى دك » ياسيدى اسكت . لاتتكلم إلى . اسكت!

(يدفع دك الى داخل الحجرة ويتبعه جريجورى)

مسزجولد : ماذا قد فعل ، حتى تدفعه هذه الدفعة القاسية ؟

جريجورى : فعل ؟ لقد أساء إلى أبيه . إنه مدين ، أو كان مدينا !

دك : كنت مدينا وقد شملنى والدى بعطفه فـ . . . . . .

جريجورى : ألا تسكت ؟

دك : (متكئا إلى برسى) لقد دفع كل الدين .

جريجورى : (إلى مسز جولد) ألا تتفضلين فتتركيني لحظة مع ابنى ؟ (إلى برسى) وأنت ألا تتفضل أيضا فتتركنا ؟

(تخرج مسز جولد وبرسى)

جريجورى : أهكذا كنت مقترضا نقودا ؟ أجبنى .

دك : نعم احتجت إلى ثمانين جنيها .

جريجورى : ولماذا احتجت إلى هذا المبلغ ؟

دك : لأحقق رغباتك .

جريجورى : ماذا تقصد ؟

دك : لقد أردتنى أن أكون محاميا . وقبل أن يكون المرء محاميا هناك نفقات للامتحان لابد من دفعها . لم أقدر على القيام بهذه النفقات . ومن أين آتى بها وأنت تعرف كيف خرجت من المنزل ؟ وأخيرا أخبرنى شخص عن « إسحاق » المرابى .

جريجورى : الرجل الذى قابلناه فى فندق « جريفن » ؟

دك : لا ، شخص آخر . لقد قبل أن يقرضنى المبلغ ، وقبلت أن أكتب له إيصالا بمبلغ مائة وعشرين جنيها .

جريجورى : ثم حل موعد استحقاق هذا الايصال !

دك : لم أطق أن أواجه الموقف وليس لدى نقود .

جريجورى : ولماذا لم تكتب إلى ؟

دك : لقد كتبت إليك مرة : « والدى العزيز ، إنى معسر أريد بعض شىء لآ كل . وأنت أجبت ......

جريجوري : صه ! أعرف بماذا أجبت .

دك : وحينئذ سمعت عن « اسحاق » آخر ، الشخص الذى قابلنا فى فندق « جريفن » والذى كان مصمما أن يذهب بى إلى السجن — لولم تدفع له .

جريجورى : لن يتعلم البلهاء أبدا . . . !

دك : لقد كنت طول هذه المدة جائعا !

جريجورى : جائعا ! وأين المال الذى أخذته من موكليك ؟ ألم تقل إن عندك اثنين وعشرين موكلا ؟

دك : لقد قلت اثنين وعشرين تقريبا . إنهم أقل...ليس لدى موكلون ولا قضايا مطلقا ..!!

جريجورى : لاموكلون ولاقضايا مطلقا ! إذا على أى شيء تعيش ؟

دك : أعيش على الخبز إذا وجدته ، وعلى الماء إذا لم أحصل على الخبز .

جريجورى : (متأثرا كثيرا) لاعجب، إنه يبدو هزيلا جدا . . . دك . .

دك : نعم والدى .

جريجورى : (متكلما فى صوت هادىء حنون) تعال عانقنى . . . . . آه ، كم تبدو هزيلا يابنى . . . !

(يدخل برسى)

جريجورى : برسى ! أيمكن أن أحصل على عشاء طيب وزجاجة من الشراب فى أى مكان ؟

برسى : لابد من شيء هناك فى المطبخ . أما تناولت أى عشاء ؟

جريجورى : ليس لى . إنه لأخيك « دك »

دك : لاتشتهى نفسى الآن أى شيء .

جريجوري : لابد أنك جائع .

دك : ذلك كان منذ أسابيع . لست جائعا الآن .

جريجورى : جائعا أو غير جائع ، أريد أن أراك تأكل يابنى . تعالى معى.

(يخرجان)

پرسى : يالعزة نفسه ! لقد عاش ثلاث سنوات محروما من الطعام. والآن لا يتقدم إليه ولو أجبر عليه !

(يدخل جولد فنش)

جولدفنش : لا أقدر أن أفهم ! لقد وزنت اللحمة فوجدتها زائدة ! لقد غيرت القصاب ومع ذلك فلم أستطع أن أكشف حيله . هم جميعا متشابهون ، وأنا أعرفهم !

پرسى : لا تنس أن السيد « لوريمر » آت هذا المساء .

جولدفنش : آه ، لقد أوشكت أن أنسى كل شيء عنه !

پرسى : أحقا ستقرضه خمسة عشر ألف جنيه ياوالدى ؟ لقد سمعتك تقول ذلك مرة .

جولدفنش : نعم كان فى نيتى أن أفعل ذلك .

پرسى : لقد فهمت أنك قد وعدته . وأنا قد أحضرت المبلغ كما أمرتنى.

جولدفنش : لقد أحضرته ورقا ، وكنت أظن أنه حوالة . . . .

پرسى : لم يعد لك حساب فى المصرف . إن محاميك قد صفى الحساب أمس . لقد أعطيتنى سلطتك لأخبره أن يفعل هكذا .

جولدفنش : حسنا فعلت يابنى . وإنى لفرح بتصرفك . لقد كان منتظرا أن يفشل « كرو دسن » إنه أحد زملاء الدراسة . وزملاء الدراسة جميعهم متشابهون ، وأنا أعرفهم !

پرسى : إن المبلغ سيكون أكثر مما نحتاج عند بيع الأسهم .

جولدفنش : لقد أحسنت صنعا بإحضارها . إنى أعرف أولئك المحامين وأصحاب المصارف . هم جميعا متشابهون . وأنا أعرفهم !

پرسى : لست أفهمك ياوالدى فى هذه الأيام الأخيرة . لقد تغيرت . تغير كل شيء فيك حتى ملامح وجهك !

جولدفنش : كل ذلك بسبب هذا المنظار .

پرسى : أرجو أن تعد هذه الأوراق المالية [يخرج]

جولدفنش : أعدها ؟ كأنه ليس من واجبي أن أعدها ! واحد ، اثنان ، ثلاثة . . . . كم هى جديدة ونظيفة . . . ! سيدفع لى « لوريمر » أوراقا قديمة قذرة . . . . أربعة ، خمسة ، ستة . . . . ذلك لو يدفع لى حقا . . . . سبعة . ثمانية . . . . ولكنه لن يدفع .... تسعة ، عشرة . . . . سفينته غير مؤمن عليها . . . . أحد عشرة . . . . ولاشك أنها قد غرقت فى جوف البحر . . . . اثنا عشر ، ثلاثة عشر . . . . كيف أعرف أن له سفينة مطلقا ؟ هو يزعم هذا ، ولكنى لم أرهذه السفينة . إلى أين وصلتُ فى العدياالله؟ يجب أن أعد الأوراق من جديد . . . . واحد ، اثنان . . . . وماذا يعمل له هذا المبلغ ؟ — لأفرض أنى تحدثت إلى جريجورى... لست مجبرا على مساعدة أى رجل . . . . رجل يحمل زيتا ... لا ، يجب أن يواجه ماقدر له

[يجلس ثم يكتب]

صديقى العزيز

لا أستطيع أن أفى لك بوعدك ؛ فأقرضك خمسة عشر ألف جنيه . إن حادثة مفاجئة تجعل هذا الأمر مستحيلا .هذا ويؤسفنى أن أفقد مسرة كبيرة كنت أجدها فى موقف نبيل كهذا .

صديقك الدائم :

بنيامين جولدفنش

[يقرأ الخطاب بصوت مسموع] إن كلمات العطف الرقيقة لا تكلف شيئا .

(يدخل جويس)

جولدفنش : خذ هذا الخطاب إلى السيد « لوريمر » فى الحال . لاتنتظر الإجابة .

جويس : ها هو ذا السيد « لوريمر » ياسيدى . خطاب لك ياسيدى « لوريمر » (يعطى جويس الخطاب للسيد لوريمر) ،

لوريمر : آه ، أعرف مضمونه . لاأحتاج إليه الآن .

جولدفنش : لاتحتاج إليه الآن ؟

لوريمر : الحمد لله ، لقد نجوت ياصديقى الكريم ، فتمنَّ لى السعادة .

جولدفنش : كيف نجوت ؟

لوريمر : إن سفينتى « نجمة الصباح » قد وصلت سالمة .

جولدفنش : عزيزى لوريمر . . . .

لوريمر : لقد مرت بى أيام قاسية ! أيام هزتنى ونفعتنى ؛ فقدعلمتنى من هم أصدقائى المخلصون . كما علمتنى أنك أحسن هؤلاء الأصدقاء . هيهات أن أنسى إنسانيتك وشفقتك .

جولدفنش : أرجو أن تتناسى خطابى . لاتذكره .

لوريمر : وبرسى ، ولوسى . . . . كم سيكون ولدانا سعيدين ! إن برسى قد طلب إلى يد « لوسى » .

جولدفنش : وأنت أخبرته أن يفعل كما تفعل فيرجو !

لوريمر : لقد كان موقفى بالأمس حرجا كما تعلم . وماذا كان يمكننى

أن أقول له فى هذا الوقت غير هذا ؟ لقد قلت ذلك لأنى ما كنت أملك أن أعطى ابنتى شيئا . ولكنى اليوم فى مركز يسمح لى أن أطلب منك شرف الارتباط بأسرتك .

جولدفنش : وخطابى . . . .

لوريمر : آه ،حوالتك . يجب أن أردها لك .

(يفتح الخطاب ويقرؤه)

(يدخل جويس من الخلف ويسمع مايقال)

لوريمر : حادثة . . ؟ إذا لقد صح مانشرته الجرائد الليلة عن « كرودسن » صاحب مصرفك ياصديقى ! لقد ترك البلاد ، وفر إلى الخارج .

جولدفنش : كرودسن ؟

لوريمر : ألم تعلم ؟ ولكنك تقول فى خطابك . . . أرجو ألا تكون قد أودعت عنده مالا كثيرا . . .

جولدفنش : عشرة آلاف جنيه .

لوريمر : عشرة آلاف جنيه ! ائذن لى دقيقة واحدة .

جولدفنش : أين أنت ذاهب ؟

لوريمر : سأرجع حالا (يسرع إلى الخارج)

جويس : (يتحدث الى نفسه) لقد خسر عشرة آلاف جنيه . . . ولهذا قد وزن القصاب !

[يخرج جويس]

جولدفنش : أفهم كل شىء ! إن « لوريمر » يظن أنى فقدت ثروتى ، لذلك فهو لايرغب الآن فى الزواج . طبعا إنه لن يرجع ثانيا ! يالله أهكذا تكون الصداقات ؟ إنهم جميعا متشابهون، وأنا أعرفهم لاشك أن جريجورى محق مرة أخرى . لقد قطعت الأمل منهم جميعا !!

نعم منهم جميعا إلا جريجورى . إنه لشىء عجيب حقا أن يكون أوفى رجل أعرف هو أخى !

[تدخل مسز جولدفنش]

مسز جولد : بن . ماهذا الذى يخبرنى به « جويس » ؟ أخسرت عشرين ألف جنيه .

جولدفنش : خسرت كم ؟

مسز جولد : عشرين ألف ، لقد سمعتك تخبر السيد لورير .

جولدفنش : لاشىء، لست فى حاجة إلى كلمات عزاء منك . ألا تعرفين أنى وجدت هذه الرسائل فى درجك ؟ [يخرج الرسائل من جيبه]

مسزجولد : ألا تزال محتفظا بها ؟ شكراً لله على أنك لم تمزقها .إنى فرحة جدا

جولدفنش : إنى لم أفتحها . انظرى ماذا كتبتِ عليها [رسائله] .

مسز جولد : ولمَ لمْ تفتحها ؟ ألا تعلم رسائل من هذه؟أنظر إنها رسائلك

جولدفنش : رسائلى ؟ أهكذا تكون ؟ أأنت قد احتفظت برسائلى ؟

مسز جولد : نعم . وسأظل محتفظة بها . إنها أغلى ما أملك فى الحياة !

جولدفنش : ماريون . ولكن شخصا حاول أن يقبلك .

مسز جولد : نعم إنه أخوك جريجورى .

جولدفنش : جريجورى ؟ مستحيل ! إنه هو الذى أخبرنى . لاشك أن هذه ثالثة الأثافى ! إنها نهاية المآسى . يجب أن أقطع الأمل من جريجورى أيضا !

[يدخل پرسى]

پرسى : أحقا مايخبرنى « جويس » ؟ إن هذا يفسر تلك التصرفات الشاذة !

مسز جولد : وهذا هو السبب فى أنك طلبت المفاتيح !

برسى : وهذا هو السبب فى أنك رفضت مساعدة السيد « لوريمر » ومع ذلك فقد رتبت لى عشرة جنيهات شهريا . لن آخذها . إنى أقدر أن أشتغل وأساعدك ياوالدى .

مسز جولد : وأنا أقدر أن أكون أكثر تفانيا وعناية بك فى المستقبل . تستطيع أن تبيع هداياى . الهدايا الثمينة التى كنت تقدمها لى فى المناسبات .

جولدفنش : آه ، إنها غلطة ، ولكنى سعيد ، إننا نقدر أن نركن إلى ذلك على أى حال ، فإنه من أسرتنا ، وما كان من الأسرة لايجرح الكرامة .

(يدخل جويس)

جولدفنش : ماذا وراءك ياجويس ؟

جويس : أأطمئن على أنك لن تطردنى ياسيدى ؟ لقد مكثت معكم زمنا طويلا . وكنت تعاملنى معاملة حسنة . لن أحتاج ولن أطلب أى نقود منك ياسيدى وبخصوص الطعام فإنى لا آكل كثيرا .

جولدفنش : جويس . . . . . ولكن شخصا كان يشرب من نبيذى. . . . .

جويس : نعم ياسيدى . إنه رتشارد « دك »

جولدفنش : أهو «دك» الذى شرب منه ؟ عزيزى جويس هاك مفاتيحك لتبق معى . وسوف أدفع إليك أجرك أيضا .

جويس : شكرا ياسيدى . ولكنى لن أسألك أجرا

(يخرج جويس)

جولدفنش : كنت أظن أن جويس هو الذى يشرب نبيذى ! برسى . لكن ذلك درسا لك . لتثق فى الخدم . الخدم الذين عاشوا معنا عشر سنوات . إنهم يكونون حينئذ من الأسرة

(يدخل دك)

دك : عمى . كلمة معك .

جولدفنش : ماذا تريد أن تقول ؟

دك : إن جويس أخبرنى أنك خسرت كل ثروتك . وأنك لم تعد تملك شيئا .

جولدفنش : وماذا قال جريجورى والدك ؟

دك : قال : لقد كنت متوقعا ذلك . ثم استمر فى عشائه . ليس لدى ياعمى مال، وكل ماعندى دبوس من الماس . إنه يساوى ستين جنيها . فهل تتكرم بأخذه ؟

جولدفنش : آه ، إنه يساوى أكثر من ذلك .... وجريجورى يقول : إن الناس جميعهم متشابهون وإنه يعرفهم ! ؟ ليقل مايشاء . أما نحن فيمكن أن نثق بأبناء الأخوة !

[يدخل لوريمر وابنته لوسى]

جولدفنش : أرجعت ثانيا ؟

لوريمر : عزيزى جولد . ألا تشرفنى بقبول هذه الحوالة دليلا على شكرى؟ إنها بخمسة عشر ألف جنيه . بالمبلغ الذى كنت تنوى أن تقرضنى إياه.

جولدفنش : ولكنى لم أقرضك شيئا .

لوريمر : إن هذا لا يغير وجه المسألة فى شىء : لازلت أعد نفسى مدينا لك بها، ومهما قدمت لك فهيهات أن أفى حق مروءتك.

جولدفنش : كنت أزعم أنه لن يعود ثانيا ! ياالله كم يخطىء الإنسان ! يجب أن نثق بالأصدقاء .

لوريمر : إن « لوسى » ستصبح حرة التصرف فى مالها . إذا كنت لا تقدر أن تعطى ابنك أى شىء .

لوسى : وأستطيع أن أكون مدبرة جدا .

جولدفنش : مدبرة ؟ لن تكون هناك حاجة لهذا . سيكون لك كل ما تطلبين. وسيتبقى بعد ذلك شيء لعصافيرك ،

لوسى : آه ، إنك لم تنسها !

جولدفنش : نعم يا « لوسى » لأن واحدا طار وخدعنى . صار قلبي قاسيا على الآخرين ! لقد ارتبت فى كل شيء ! ارتبت فى الأصدقاء، وفى ابن الأخ ، وفى الابن، والزوجة — مع أنهم كانوا جميعا مخلصين — ولكنى اليوم أستطيع أن أثق فيهم جميعا إلا الأخ . ياللعجب ! أيكون الرجل المنافق والمفترى الوحيد بين من أعرفهم — هو أخى الشقيق ؟

(يدخل جريجورى وفى يده ورقة — فيخرج لوريمر)

جريجورى : ماهذا الذى أسمع ؟ لقد جعلت من نفسك شخصا أبله !

جولدفنش : (لنفسه) ذلك مايقدر أن يواسينى به !

جريجورى : هل خسرت حقا كل ثروتك ؟ إنك تستحق أن تخسرها ! إن من يأتمنك على المال كمن يأتمن أى طفل ! كان ينبغى أن يكون لك وصى ! لماذا لم تبق عينك مفتوحة وجيبك مقفلا ! لماذا لم تفعل ذلك مثلى ؟ أين القلم ؟ وقعْ على هذه

جولدفنش : أوقع على هذه ؟ وثيقة شركة ياجريجورى ؟

جريجورى : إذا كنت لاتعتنى بنفسك ، فمن الواجب أن أعتنى أنا بك ستكون منذ اليوم شريكى فى ثروتى ، فإنى لا أطيق أن أرى أخى فى ثياب البؤس والفاقة ! ولكن حذار أن تعود إلى تصرفات البلهاء !

جولدفنش : هذه شفقة زائدة . . . . جريجورى . . . . يمكنك أن تقبل

زوجتى مادامت تحمل هذا القلب ! نستطيع أن نثق حتى فى الاخوة ! أما الخدم . . . . خدم المائدة ! الذين يقيدون علينا سمكا دون أن نأكله فمحال أن نثق بهم !

جريجورى : خدم المائدة ! آه لقد ذكرتنى ! هل جراد البحر « الجمبرى » سمك ؟

جولدفنش : نعم جراد البحر سمك .

جريجورى : إذا فلاذنب على خادم المائدة . لقد قيد فى قائمة الطعام سمكا ، وكان يقصد « جرادالبحر » هذا الذى قدمه، وأكلت منه كثيرا . فالذنب على جهلى الاسم . وخادمك ليس بسارق .

جولدفنش : إذا يجب أن نثق فى خدم المائدة أيضا !

(يدخل لوريمر)

لوريمر : أخبار جديدة . لقد خطر لى أن أشترى صحيفة ، وقد اطلعت فيها على نبأ سار .

جولدفنش : نبأ سار ؟

لوريمر : نعم (يقرأ)

« يسرنا أن نقول . إن مايشاع عن فرار « كريدوسن » صاحب مصرف كريدوسن غير صحيح . وكل ماهنالك أنه غادر لندن ليعتنى بأعمال المصرف. ومركزه المالى كما هو ثابت جدا ، ويستطيع أن يدفع فى أى وقت كل مالديه للمودعين كاملا »

جولد فنش . إن هذه أخبار سارة لك

جولدفنش : لى ؟ إنها أخبار لاتهمنى ولا تتعلق بى .

لوريمر : ألم تقل إن لك عنده عشرة آلاف جنيه ؟

جولدفنش : كان ذلك أمس . ولكنى سحبتها منه من قبل .

لوريمر : إذا فأنت غنى كما كنت دائما ؟

جولدفنش : نعم أغنى من حيث العلم بمدى صداقتك واحسانك ووفائك ! أصدقائى : إنى أرد إليكم مساعداتكم بمثل الروح التى قدمت إلى بها . لن أنسى هذه المساعدات أبدا . إن الدنيا ليست من الرداءة بمقدار ما كنت أقدر أخيرا .

[تدخل شارلوت]

شارلوت : منظارك . إنه قد أتى ياسيدى .

جولدفنش : آه منظارى الذهبى ؟ إنى سعيد بأن يعود إلى مرة ثانية.

[يلبسه ويبتسم لكل شخص]

مسز جولد : جميل . إنك تبدو فيه أنت نفسك ثانيا .

جولدفنش : وكذلك أشعر أنى أنا نفسى . جريجورى . تفضل منظارك . أشكرك على أن أعرتنى إياه ، ولكنه لايوافقنى . وإذا كان فى الدنيا أشخاص لاخلاق لهم ، فإنى أفضل أن أشقى وأضل ، على أن أشك وأخطىء فى الحياة ! !

عبد العزيز عتيق

﴿ نهاية الرواية ﴾

من الأدب الجديد :

الضيف . . . . . .

للأستاذ محمد سعيد العريان

ود توفيق لو يهجر المدينة وأهلها ويقطع صلته بالناس فترة من الزمان، فإنه ليجد لذة ويحس أنسا أن يفارق هذه الصور التي يطالعها وتطالعه كل صباح ومساء؛ لقد أطافت به نوبة من الضيق والملل حتى لا يلقى أهله إلا بوجه عابس وطلعة متجهمة، ودق حسه حتى أصبح سريع التأثر قريب الانفعال، وكان في إجازة طويلة، والجو حار يهيج الأعصاب ويثير النفس ويبعث على السأم، وإنه ليعيش بين أهله ولكنه يشعر بالوحشة والانفراد؛ فلا طاقة له على البقاء في البيت ساعة من نهار، ولا يجد في القهوة ما يسلي نفسه ويشغل فراغه؛ وقد هجره أصدقاؤه جميعاً إلى المصايف أو إلى بلادهم، وخلفوه ونفسه يصارع الهم والوهم والوحدة والألم . . . !

وتصورت في خياله القرية التي مس ترابها جلده منذ ربع قرن، والتي لا يذكر — لبعد العهد — متى هاجر أهله منها إلى المدينة، ولمه . . . ؟ لا شك أنه سيجد هناك من جدة العيش وطرافته ما يحمل عن صدره أثقال الهموم ويهدى إلى نفسه الموحشة بعض الأنس والهدوء والدعة.

وتراقصت أمام عينيه صورة جذابة من حياة القرية ويسر الحياة فيها بعيداً عن أسر التقاليد وتكاليف الحضر، وحضرته ذكريات حلوة من زياراته القليلة لأخته في القرية، فذكر مجالسه مع شبانها على حافة الساقية تحت شجرة التوت.

الغايظة تساقط عليه ثمراً شهياً، ورياضاته فى جلبابه الفضفاض تحت المعطف الأبيض على شاطىء الترعة وبين الحقول، يتملى بجمال القرويات غاديات رائحات من الترعة وإليها أسراباً أسراباً يجررن الذيول، ويحملن الجرار على رءوسهن، ويهمسن بالغناء الساحر تسيل فى نبراته الرقة والعذوبة والحنين. وذكر مجالس الأنس والسمر فى الليلة المقمرة على مصطبة الدار، وحديث القرويين يتنقل فى لذة وسمر بعيداً عن التزويق والادعاء الفاخر . . . وزهته مظاهر التبجيل والاحترام التى تحيط به هناك.

٭٭٭

وفى اليوم التالى كان القطار يغذ السير بتوفيق إلى القرية، وقد أشعل بين أصبعيه دخينة وسبح فى أحلام لذيذة بهدوء القرية وسحر بناتها . .

وتلقته أخته بالترحيب والعناق، وجلست إليه قليلا تحدثه ويحدثها، ثم تركته لتهيىء له الطعام بيدها، طعام القرية الشهى الدسم اللذيذ. وتوافد عليه عارفوه وشبان أسرته يحيونه ويتجاذبون وإياه أطراف الحديث، يقطعون بين فتراته بالتحية المكررة والسؤال عن الصحة والأحوال ...!

وخرج معهم فى العصر يطوف بأزقة القرية يتعرف إلى الوجوه والأبنية، واخترق سبلا وعرة بين الحفر وكومات السماد، وبيوتا متواضعة متقاربة كأنما تدانت للعناق. وانتهى به المطاف إلى دار له بها عهد؛ لأن صاحبها من ذوى قرابته، واجتمع لفيف من شبان القرية وشيوخها يبعثون التاريخ، ويتناولون أنباء القرية وحوادثها، وأنباء السياسة أيضا، وإن لهم فى السياسة لأحاديث لاتخلو من حكمة وبعد نظر!

وأعجب توفيق بحديثهم كما تعجب بحديث الطفل، فأنصت إليه فى لذة وأنس، كما يستمع السائح المؤرخ إلى خرافيات دليله الجاهل عن سر أبى الهول وأطياف وادى الملوك ..!

وأديرت فناجين القهوة ، وانعقدت فى جو الغرفة سحائب الدخان ، واشتد الحر فأسال العرق على الجباه ؛ وشعر توفيق أنه يكاد يختنق ، وأن أعصابه تخونه ، فهم بالانصراف ولكنهم ألحوا عليه أن يجلس فجلس .

وأخذوا فى حديث الشياطين والجن ، فراح كل واحد منهم يحدث بما سمع وما رأى وتفننت عبقرية الجهل فى اختراع القصص المروّعة والروايات الغريبة وطفقوا يعددون الشياطين بأسمائها وحوادثها وضحاياها ... وأشار « الشيخ » بيده فأنصتوا ومالوا برءوسهم إليه ، وقد أخذ يرقص شاربه وترتجف شفتاه فى انفعال عصبي ، وشرع يقص على الحاضرين قصة العفريت الذى كان يتسور عليه البيت وهو شاب ليالى متتابعة ، فيقاسمه طعامه وشرابه ، وفراشه أيضا ، فلا ينصرف إلا مع أذان الفجر ، والزنجية الحسناء التى كانت تصحبه ليالى فتحتل موضعه فى الفراش ، وتضطره أن يقضى الليل معقودة يداه خلف ظهره ورأسه بين ركبتيه إلى حائط الدار ، ثم لا يفارقه العفريت وصاحبته قبل الصباح إلا بنفحة من دراهم أو عصوين من نار تلهبان ظهره ؛ جزاء رضاه أو سخطه على مايصنعان ...

وكان حديثا غريبا على الضيف ، فحاول أن يتفلسف وينكر ويعلل، ولكنهم أنكروا منه ذلك ، وطلبوا إليه التسليم أو يتعرض لغضب الشياطين وأذاهم ؛ وكانت أعصابه مهيأة للتسليم فسكت . واستمروا يتحدثون .

وأحس رعدة خفيفة تتمشى فى جسده ، فسحب رجليه فى هدوء فدفنهما فى أطراف ثيابه ، وجمع يديه فى حجره ، ومال إلى المحدث يستمع إليه هادئا منصتا فى شبه إيمان . لقد حطمت هذه الليلة الصاخبة أعصابه، وهاجت وساوس نفسه المريضة .

وانتهت السهرة ، ولكن صاحبنا ظل جامدا فى مكانه ، لم يهم بالقيام حتى دعوه ، فنهض كبيلانٍ متراخيا يكاد يسقط من إعياء . وشيعوه إلى دار أخته

وهو سار بينهم يتعثر فى أوهامه ...

ووجد أهل البيت نياما فلم يبق ساهراً فى انتظار عودته إلا مصباح ضئيل مرقد فى الردهة، يرقص لهبه على عزيف الهواء. وكان يعلم أنهم أعدوا له غرفة فى الطبقة الثانية، فصعد فى السلم بطيئا متثاقلا يتلفت بين الخطا، والمصباح فى يمينه. ودفع باب الغرفة بيسراه فسمع صوتا يشبه أنين المستصرخ، فأدار ظهره فى فزع لدى من هناك، ولكنه لم يجد شيئا، وعاد يدفع الباب، فسمع حشرجة خشنة، ثم ضحكة بشرية ناعمة . . !

ووقف فى وسط الغرفة يقلب بصره بين زواياها فى رعب وفزع، وكانت به رغبة فى التدخين، ولكنه لم يجرؤ أن يذهب إلى الغرفة الثانية — حيث أودع حقيبته — ليستحضر بعض التبغ. وخلع نعليه وهو جالس على حافة السرير ويداه ترتعشان، وتتجاوب فى أذنه أصوات غريبة تفزعه وتسلبه الطمأنينة. ودفن نفسه فى الفراش، واستلقى على ظهره وقلبه يدق دقات عنيفة، وكأن يداً غليظة تقبض على عنقه، وأشباحاً خفية تطيف به.

وكان يعلم أنه ليس فوق السطح غير أكداس من الحطب والوقود، ولكنه أحس دبيب أقدام، وسمع أصواتا غريبة هامسة ليست من صوت البشر ! أتراه أغضب الشياطين فأرسلوا إليه عفريتا ينتقم منه ؟

وضاقت أنفاسه، واضطرب فكره، واشتد ضغط الوهم على صدره، وهم أن يصرخ ويستنصر، ولكن صوته احتبس ولم يتحرك لسانه. وشبه له أنه يرى شبحا من الضباب فى شكل غير إنسانى — وإن كان يمشى على رجلين — ينسل من النافذة مع ضوء القمر، ويشير إليه بالصمت فى إنذار وتهديد . . . !

وسحب الغطاء يخفى عينيه فى حركة آلية، لكنه أحس شيئا بارداً يلمس أطراف قدميه، فاستوى جالسا وأفلتت منه صرخة مخنوقة، وتوارت الأشباح فلم يبصر شيئا، ولكن همهمة غير مفهومة، ودبيبا وهمسا، وأصواتا غريبة،

تصك أذنه من بعيد . واستلقى ثانية على الفراش وهو يحدق فى الحائط الذى أمامه تحديق الخائف المذعور ، فقد أبصر ظلا أسود مطبوعا عليه ، يحرك رأسه ويشير بيديه كأنه يتحدث إلى شخص بعيد . وود توفيق أن ينظر إلى ماوراء ليرى المشار إليه ، ولكنه خاف ؛ واستمر الهمس والدبيب يرنان فى أذنيه ، وتتراقص الرؤى والأشباح أمام عينيه ، فلم ينم ليلته ؛ وفى الصباح ، مع أول خيط من ضوء النهار ، كان جالسا فى فراشه يصفق بيديه فى عنف يستدعى الخادم . ودخلت أخته تحييه ، فراعها مارأت فى وجنتيه من صفرة الخوف وإعياء السهر ، وقالت له « توفيق ، ماذا بك ؟ » .

— « لاشىء ، ولكنى مسافر اليوم فأعدى لى ركوبة إلى المحطة » .

— « مسافر ؟ ولكنك عرفتنى أمس أنك قد تمكث لدينا شهرا ، فلماذا غيرت رأيك ؟ » .

— « لاشىء ، لاشىء ، قلت لك لاشىء . إن حقيبتى فى الغرفة الثانية » .

وآلمتها لهجته فمطت شفتيها آسفة وخرجت تنفذ ما أمر به ، ثم عادت تسأله « حدثنى ياتوفيق ، هل تألمت من شىء هنا ؟ »

— « لا ، ولكنى لم أخبر أمى أمس أنى مسافر ، فأخشى أن يقلقها غيابى أو يؤلمها ، لذلك سأعود . »

— « ليتك لم تحضر ياتوفيق . » وانصرفت لبعض شأنها .

٭٭٭

وحين تناول توفيق حقيبته من حيث وضعها أمس ، أفلتت منها ورقة فظنها سقطت منه ودسها فى جيبه قبل أن يقرأها .

ولما جلس فى القطار ، وضع يده فى جيبه ليخرج شيئا ، فعثر بالورقة ونشرها بين أصابعه يقرؤها . . . . وضحك توفيق وشاع فى وجهه السرور حين عرف ماهناك ، لقد كانت أخته تربى له ماعزة ولوداً ، فكتبت له هذه الورقة أمس تخبره أن فى ضيافة ماعزته فوق السطح جديا فلا يفزعه دبيبهما ، ريثما ترد الجدى إلى صاحبه فى الصباح . .

لقد خاف توفيق وفزع ليلته ، لأنه كان يظن أنه وحده ضيف البيت ..؟

محمد سعيد العريان

صوت المعلم

« قصيدة الأستاذ عبدالعزيز عتيق التي أعدها لحفلة الذكرى التي شرفها معالى وزير المعارف السابق الدكتور محمد حسين هيكل باشا »

رائد النور فى ربا النيل أقدم حبذا عهدك السعيد وأنعم
حبذا أنت للمعارف يرعا ها فؤاد بالحب والخير مفعم
وثبت للأمام فى عهدك الزا هى ، ونالت على يديك التقدم
ومضت تنشر الضياء على الوا دى ، وتمحو بفيضه كل مظلم
خرجت للحياة تبنى وتعلى كل ما مال ركنه أو تهدم !

***

عبقرى الآمال لم يك يوما بسوى المجد والعظائم يحلم
وجرىء تراه يقدم فى الحق م إذا غيره عن الحق أحجم
شرعه العدل والإخاء مع النبـ ل ، ومن كان شرعه ذاك يعظم
وعجيب آياته يتجلى نورها بيننا ولا يتكلم !

***

ياوزير الإصلاح ، يارائد النهـ ضة فى مصر ، يانصير المعلم
كل يوم لكم جديد من الفضـ ل ، ودنيا عظيمة لا تقوم
ياوزير الإصلاح ليس كثيراً أن نرى رأيك الرجيح المقدم
فقديما هتفت فينا جريئا فاستجبنا إلى النداء المنغم
وقديما دعوت للأدب الحر م ونسج من الثقافات محكم
وقديما خلقت جيلا من النشـ ء، طموحا يهوى الجديد ويفهم
كلمات من نعمة الله كانت تتمشى بنا شفاء وبلسم
كلمات فيها ابتكار وعمق ولها سطوة وسحر مجسم
كل من ذاقها تنبأ بالمجـ د ، ويوم فيه تسود وتحكم

والذى أنعم النفوس هوى   أنك ـ فيما أتيت ـ بالحق ملهم

٭٭٭

ياوزير البيان ، فى مصر دار   قدست فهى كالحطيم وزمزم
هى « دار العلوم » معجزة الشر   ق ، وأستاذه الذى ليس يهرم
حملت راية الحنيف وصانت   لغة الدين عن عيي وأعجم
ومشت بالضياء والجهل فاش   وصحت للجهاد والقوم نوم
لا يقل مغرض : وأين جناها ؟   إنها بالدم المقدس تخدم
طاب منها الجنا ، وليس عجيباً   وجنا الناعبين صاب وعلقم

٭٭٭

من كهذى الحسناء أخلصت الود   م إلى النيل رغم طول التحكم ؟
كل عام لها جديد من النش   ء كأنى بهم شموس وأنجم
أنشأتهم مباركين فهيها   ت فتى منهم على الشر يقدم
لقنتهم معنى التواضع والإي   ثار والصبر والرضا والتبسم
معشر كل همهم أن يكونوا   رسلا تشرق الحضارة منهم
والذى نشهد العشية معنى   من معان لهم تجل وتعظم
ليس « دار العلوم » ماقلت ، لكن   هى أسمى مما ذكرت ، وأقسم !

٭٭٭

ياوزير البيان ، يارائد الفك   ر ، ويا أعدل القضاة وأحكم
المربون فى زمانك يرجو   ن شفاء من الشقاء الملثم
المربون عدة النيل كاد ال   يأس يسطو على هداهم ويهجم
نظرة منك فى اقتناع وصدق   ياوزير البيان تقضى وتبرم
ورحيم من ينصف الناس شتى   والذى ينصف المعلم أرحم

عبد العزيز عتيق

قصيدة الأستاذ عبد العظيم بدوى

ذكرى أبى الفتح !

ترامت عطاشاً شاحبات أزاهره وذابت أغانيه ، وضجت حناجره
وصرّت على أعشابه ورقاته وجفت على ثغر الطيور بشائره
وشقت عذارى الورد حمر جيوبها كما تندب الميت الكريم حرائره !
وأعولت الأرواح فى جنباته وصاح نذير الأيك أن فض سامره
فلا الغصن مياس ، ولا النور ضاحك ولا تنشد اللحن الطروب عصافره
ولا الزنبق الغيسان ينفح نده كما تنفح المسك العطير مجامره !
ولا الكرم يزهى كالغوانى بقده عناقيده نشوى ، ونشوى غدائره !
كأن اصطفاق النهر تحت ظلاله صراخ يتيم أسود الجد عاثره !
تجهم للروض الغناء فغاله فيا بؤسه فى مأتم الروض شاعره ..

٭٭٭

لمحت به غيداء فى ظل دوحة تمرغ فى العشب الذى جف ناضره
تألق صفو الرمل فى صفو عينها وجالت به آرامه وجآذره
تمزق فرعا كالدجى ، وغلائلا نواصع كالورد استبيحت بواكره
ترى ياهزار الأيك من تلك ما اسمها وماخطبها يطغى وتطغى مقادره ؟؟؟
فقال : اسمها الفصحى، ومن غيد يعرب وصاحبة الروض الذى أنت عابره !!!

٭٭٭

حثثت إليها الخطو أسوان خاشعاً يساور قلبى نحوها ما يساوره !
حنانيك ، رفقاً يافتاتى ، وأجملى عزاء ؛ فكون الله تلك مصائره !
فصعدت الحسناء طرفاً مخضبا وصاحت ، وقانى الدمع يسفح قاطره :
« معاذ جنانى أن أكفكف عبرتى ويهدأ فى الصدر الممزق ثائره !

فما شئت يا دهرى خطوبا فهاتها فأول خطبي فى « أبى الفتح » آخره »

✿✿✿

وثم عجوز خضب الشيب فودها وأوهنها الخطب الذى شب ساعره

ترامت على ظهر الكثيب وولولت يشاطرها النخل الأسى وتشاطره !!

يحار بجفنيها من الدمع قانىء فيرفض هاميه ، وتدمى محاجره

تبلج نور الحق من نظراتها كما انفلق الإصباح يسطع باهره

فلو أن هذا الكون سر محجب أميطت بهذا النور عنه ستائره

ترى ياهزار الأيك .. ..

فقال اسمها ؟ ياويلنا ، حرت فى اسمها وقد كنت أحجو أننى اليوم ذاكره

هى الحكمة الغراء ، أودى حكيمها وظلت خلودا باقيات مآثره

✿✿✿

وتحت ظلال الدوح شيخ مهدم عليه جلال تستبيك مظاهره

تكاد إذا ألفيته متأملا تصيح : أرى لقمان يبعث غابره

تخال بريق الدمع فى وجناته ندى فى جبين الصبح ينضح عاطره

ترى ياهزار الأيك من ذاك من أرى وماخطبه يطغى ، وتطغى مقادره ؟؟؟

فقال : ترى « سقراط » يندب حظه لذكرى « أبى الفتح » استجنت خواطره

✿✿✿

أبى ، يالواء الدار ، ياذوب قلبها ويادمها المشبوب كالنار زاخره

أبى يا أبى الروح ، ياشعلة سرت ليهدى بها فى حندس الليل سادره

أبى يا كبير القلب والنفس والحجا ، ويا أمل الدار المصوح زاهره

أبى ياعطوفا كالنسيم إذا سرى ترف كأنفاس العذارى بوادره

أبى يا أبى .. قد بح صوتى ألا أرى مجيبا سوى الصمت الذى طم غامره ؟

قضيت إذاً ، وانفض عرس نظمته خبا عزف شاديه ، وهسهس زامره !!

***

حنانيك أدركها ؛ فقد عصف الردى بها ، وعفا الربع الذى أنت هاجره
تنمرت الذؤبان فى عرصاته ومن عجب يبغى الأناة غضائره
لنا معهد من دونه الشمس محتدا تألق ماضيه ، وأزهر حاضره
جميل لدينا أن يهـدم فوقنا وليس جميلا أن تخط حفائره
تعاوره الرامون من كل جانب فرام يغاديه ، ورام يباكره
يريدون أن يفنى من الليـل نوره ومن دون مايبغى البغاة عباقره
وماذا يفيد السيف فى حومة الوغى إذا اصطك بالصخر الممرد باتره ؟

***

سلوا نائح الطلح المهوم : من ترى إذا هجع النوام هب يسامره ؟
سلوا النرجس الفواح من كان فى الضحى تشنفه عيـدانه ومزاهـره ؟
وميلوا على وادى الضحايا وسائلوا به دمها الغـالى تثج مقابره
ترى يادم الأبطال من حبب الردى إليك ، ومن ناحت عليك قياثره ؟
أناشيد من « دار العلوم » يصوغها شباب نبيل الروح والقلب طاهره
ففى كل يوم شاعر يسحر النهى إذا ماشدا فالـكون طرا منابره

***

« أباالفتح » لايحزنك ماصنعت بنا الـ خطوب ؛ فإن الغاب يحميه زائره
تحوم الذئاب العاديات حياله .. وترتد إما روعتهـا أظافره ..
وزير له فى الحق أية صيحة تغنى بها فى « منزل الوحى » شاعره
يضج بهـا « وادى الحجيج » كأنها هتـاف الملبى جاوبته مشاعره
طروب لهـا « يس » فى القبر أنها نشيد الهـدى ، فيـه تعد مفاخره

كأن صداها في الربى الفيح رنة لصوت بلال رجعتها منائره

***

«أهيكل» قد أديت لله حقه وللأدب العالى تدانت أواصره
وللسمحة الغراء شرعة أحمد وللوطن العانى إذا اشتط آسره
وللنور والعرفان لم تأل رافعا لواءهما الخفاق يبهر ناظره»
ملأت ربوع الشرق علما وحكمة وفلسفة يهدى بها اليوم حائره!
رعيت «ابنةالصحراء» فىخدربيتها وقد شيد فى ظل «المنيرة» عامره
تصدى لها رهط البغاث فرعته فريع فولى مدبرامنك طائره!

***

وحولك أبطال إذا اصطخب الشرى فمن بينهم أشباله وقساوره!
وأبناؤها الأبرار من كل هاتف بمجد أمه والنجم يرعاه ساهره
جراحاتها تنزو، فتنزو جراحهم إذا ما اكفهر الليل واسود كافره!
توثب يحدوهم «نجيب» إلى التى حداهم «أبو الفتح» المخلد غابره!

***

أبا الفتح لايحزنك ماصنعت بنا الـ عوادى؛ فإن الغاب يحميه زائره!

عبد العظيم بدوى

فهرس

العـــدد الثانى من السنة السادسة